سلسلة مطحنة الصمت

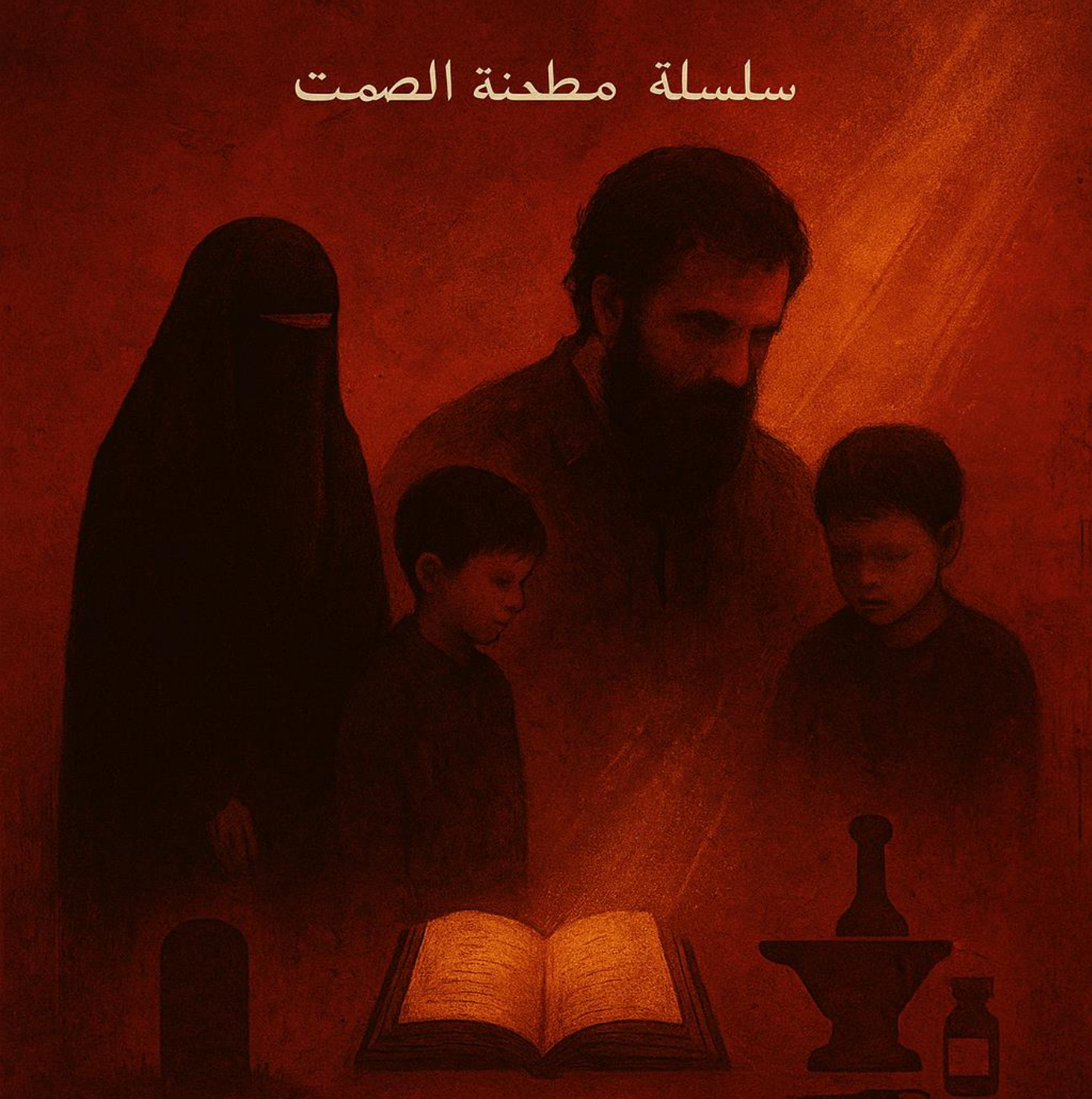

الحاذق

ثابت خربيش

بسم الله الرحمان الرحيم

اللهم حاسبنا حسابا يسيرا

مطحنة الصمت.. حيث الصدى لا الكسر

ثــابت خربيش

الى الجميع دون استثناء

لا تستطيع تحقيق كل أهدافك لكن تستطيع تحقيق أهداف أكبر من أهدافك

–الرواية ضرب من الخيال–

مدخل

صباح يوم الأحد على الساعة الخامسة والنصف، دار سليم على جنبه الأيسر في مضجعه، كرضيع حان وقت ولادته، وخروجه من رحم أمه، وحين سمع آذان الفجر نهض بعينين مغمضتين، ووجه ذابل جاف، وخرج من غرفته الصغيرة النظيفة التي كانت تحتوي على سرير قديم مصنوع من الخشب الأحمر موضوع بجانب الجدار الأبيض، ومائدة مستديرة صغيرة في وسطها، بجانبها مقعدين، وفي منتصفها باقة من الأزهار، وعلى أحد جدرانها لوحة فنية مرسومة باليد، عليها ما عليها، ولا ننسى الخزانة الصغيرة الخشبية والرمادية التي كان يضع ملابسه وأغراضه فيها، كان يوجد تحت اللوحة المرسومة على يمينها مكتب أسود به مجموعة كتب وألوان ملونة، أوراق خاصة بالدراسة وكرسي موضوع بجانبه، حيث تقابله نافذة رباعية الشكل، مفتوحة، تطل على ضواحي مدينة روتردام، وفي نهاية الغرفة كان يوجد باب خشبي أحمر قد خرج منه سليم للتو متجها الى الحمام، ليغسل ويتوضأ، بهدف الذهاب لقضاء صلاة

الصبح والسفر بعدها الى مدينة أمستردام الهولندية، قصد تسجيله ودراسته في جامعة أمستردام، بكلية العلوم الإنسانية.

سليم رجل جريء، رزين وغير متعصب، عمره واحد وعشرون سنة، جذاب بلباسه الأسود والأزرق، هادئ بأخلاقه المريحة، نحيف الجسم، ليس بالبدين كما قد يتصوره الغير، وزنه لا يتعدى خمسة وستون كيلوغرام، رشيق القامة، أبيض البشرة، ملامح وجهه مستقرة، أحيانا ما يظهر عليها الحزن والاكتئاب وعلى وجهه لحية سوداء، عينيه متسعتين سوداويتين، لديه شعر بني داكن كثيف تتخلله شعيرات بيضاء، وعلى عنقه خانة سوداء، هو شاب وسيم، وديع.

بعد مرور دقائق خرج من الحمام وعلى عنقه الفوطة يمسح بها وجهه المبلل، راجعا الى غرفته عبر رواق المنزل، الضيق نوعا ما، وعندما استقر على كرسيه لبس حذاءه وعدل هيئته وخرج من البيت قاصدا المسجد، الذي كان لا يبعد عن البيت إلا أمتار قليلة، كان بيته يكمن في قلب مدينة روتردام، المنطقة التي كان يعيش فيها هي منطقة راقية ونظيفة، بها مباني كبيرة،

ومحلات ضخمة، بيوت فخمة، مبينة على نمط وشكل ملائم ومريح، أشجار جميلة متنوعة ومتعددة، خضراء موضوعة في أنحاء المدينة، في الشوارع والحدائق وأمام المنازل، كانت الشوارع شبه خالية في ذلك الوقت، الهدوء يكاد ينتشر في المدينة بكاملها خاصة وهو يسير على الرصيف الخالي من الحركة.

بعدما وصل سليم دخل وصلى ركعتي تحية المسجد وسنة الفجر ثم قام الإمام ليصلي بهم الصبح.. وحينما انتهت الصلاة بقي يسبح ويذكر الله الى أن أكمل ذلك، فخرج من المسجد راجعا الى بيته وهو يذكر الله في قلبه ونفسه من جديد، وبعد مرور عدة دقائق وصل فدخل المنزل، عندئذ لاحظ أن أمه قد قامت وها هي الآن تحضر فطور الصباح في المطبخ، فذهب مباشرة ليقبل جبينها قائلا لها:

– السلام عليكم أمي

– وعليكم السلام بني، كيف أصبحت؟

– على خير أمي. الحمد لله

ثم جلس على الكرسي وبدأ يتناول فطوره الذي وضعته للتو، وهي واقفة تقول:

– إذن أنت ذاهب يا بني!

– يرد بقناعة، نعم يا أمي لقد قررت، يجب علي الذهاب لتحقيق هدفي كما قلت لك!

– ماذا أقول لك؟ لتكن رجل يا بني

– حسنا يا أمي

****

اللمسات الأولـى

حين أنهى سليم فطور الصباح هيأ نفسه جيدا وحمل أغراضه في حقيبته، وكتابه الخاص في يده، مودعا أمه، ثم خرج من المنزل متجها الى القطار المغادر الى مدينة أمستردام، كانت المحطة هناك صباحا تعج بالمسافرين الذين أتوا من كل ضواحي المنطقة، مختلفي الجنسية والسن، لحظة وصوله للمحطة دخل الى المستودع لشراء تذكرة السفر وبعدها استقر جالسا ينتظر وصول القطار، كان يجلس جلوس التائهين في بداية نهارهم، الجو كان راقيا، السماء كانت صافية خالية من السحب، الضجيج والازدحام كان يملئ المكان تقريبا، الأقدام في حركة مستمرة على الأرض، وبعد دقائق من التيه والملاحظة اتضحت لسليم صورة يومه، حيث استقر ذهنه كما يستقر جوف البحر من الحيتان في الغسق، حينئذ وصل القطار يصفر صافرة الحذر والأمان الى المحطة ويتوقف، فنهض من مكانه وغادر المستودع وهو حامل أغراضه وكتابه في يده ثم ركب القطار في المقاعد الأولى الزرقاء، كان يحتوي على أربعة مقاعد

في كل ركن ورواق طويل نظيف، المسافرين صعدوا منذ لحظات مع أصدقائهم وآبائهم وأمهاتهم..وهو جلس بجانب النافذة المطلة على المستودع والأشجار الكبيرة التي كانت منصوبة برقيها وشكلها البسيط على الرصيف، وبعد مرور ثلاث دقائق من انتظار الركاب بدأ القطار يصفر ويسير ببطئ معلنا وقت خروجه، المناطق التي كان يمر عليها كانت في قمة الجمال بما فيها الحقول والأعشاب الخضراء، الأزهار الملونة، الأشجار كانت تظهر في حركة دائمة وهو يسرع، ولكن ما كان يتبين لسليم وهو ينظر عبر النافذة سوى خيالات يسردها عقله من فينة لأخرى، كان يبدو وكأنه يفكر في العدم! إلا أنه بالنسبة لإنسان آخر قد تظهر له أن الحقول والأشجار والأزهار بما فيها أرض الله تسير عكس سير القطار فينظر متأملا في المناظر الخلابة الطبيعية، باحثا عن الأجمل، لكن هو كان لا يحتفل لتلك المناظر والمباني، كل ما كان يهمه الوصول الى أمستردام والتسجيل في الجامعة، بكلية العلوم الإنسانية، كان يجلس بجانبه رجل أسود البشرة يحمل جريدة ويقرأ، يقابله رجل مسن

وامرأة متزوجان، أشخاص واقفين بجانب بعضهما البعض يشدان في العمود المنصوب على ظهر القطار لمساعدة الركاب في الثبات

وبعد مرور حوالي أربعون دقيقة وصل القطار الى أمستردام وإذا به ينهض من تخيلاته التي كانت تبدو معقدة ومبهمة، فيمسك كتابه ويأخذ حقيبته ثم ينزل ويكمل السير في شوارعها الراقية والنظيفة، المليئة بالأخضر واليابس، المباني المزخرفة والحدائق الممتلئة بالأطفال والعائلات، كان يمشي ويلاحظ بعينيه المكان الملائم الذي سيساعده في المكوث والاستطلاع لما تخفيه أمستردام من أسرار..

وهو مار على أحد الأسواق في نواحيها، إذ به يجد التجارة بأنواعها وأشكالها المتعددة، كان السوق مرتب ومنظم ومنسق، يحتوي على العديد من الخضروات واللحوم والفواكه وغيرها من الملابس والأحذية.. كان المنظر ربيعي مزهر، مريح مع نداء واشهارات التجار، والسلع الموضوعة بأشكالها وأنواعها، كانوا مبتسمين ومتصالحين، متعاونين على الخير، بعيدا عن

الحقد والتحايل في البيع، كل ما وجده ولاحظه سليم أنهم كانوا لطفاء، مجتهدين ومعتصمين بعبارة تفضل وخذ ما تريد بأي ثمن تريد، كانت هذه أول جولة ولمسة يقطعها في أمستردام، وبعدما اجتاز السوق قاصدا طريق الجامعة، وإذا به يجد امرأة مع رضيعها الصغير الجميل كجمال النور، جالسة على الأرض بجانب باب المسجد (خاص بالمسلمين) والذي كان يقابل الساحة النظيفة التي كانت تحتوي على كراسي مصنوعة من الفولاذ وشجيرات موضوعة هنا وهناك. سائلة الناس، طالبة يد العون والمال الكافي لعيشها ونمو ولدها الرضيع البا كي أمام المسجد، في شارع المدينة الباهية، والغريب في الأمر أنه في تلك اللحظات توقف لأول مرة أمام فقيرة محتاجة كانت هي ورضيعها حائر وفي خجل من نفسه!

حقيقة كان على المسؤولين أو أهل المدينة وأصحاب الخير حمايتها وإعانتها، وأن يجدوا لها مكان تنام فيه مع الرضيع، وحتى أمثال هؤلاء لهم الحق في العيش في أمن واطمئنان. وما كان على سليم البسيط أن يفعل؟ فهو أصلا لم يكن لديه

المال أو صاحب مال وفير حتى يعطيها الكثير مما تحتاجه هذه المرأة المسكينة من لباس وغذاء للعيش، غير أنه كان يملك بعض المال احتياطا عبر به عن اهتمامه وحبه للفقير، معطيا ذلك المقدار للرضيع، الذي كانت تضعه أمه على حضنها الدافئ، ممسكا يده الصغيرة، كان لا يتحرك، ينظر إليه نظرة غريبة ويبكي، والمرأة تنظر إليه بفرح وابتهاج، وبينما هو ينظر إليها نظرة رحمة وخجل:

– ليرزقك الله من فضله وإحسانه يا أختاه، لن أسألك عن سبب وجودك هنا، لكن لتعلمي أن الذي ضيعك مع هذا الولد هو شخص حقير مستهتر

ونظر مرة أخرى للرضيع وعلى عينيه الرقة والحنان فقال له:

– ما دمت بجانب أمك فلا تخف، ولما البكاء فلتنعم يا ولد، أليس كذلك؟

– أجابت الفقيرة بنعم وقالت: شكرا أيها الطيب

ثم دعا الله في عمقه لهما وأكمل سيره متجها الى ما جاء إليه..

****

اللمسات الأولى

(تابع)

وفي تمام الساعة العاشرة إلا الربع صباحا وصل سليم إلى جامعة أمستردام الراقية والنظيفة من الداخل، الجميلة بأشجارها ومبانيها العالية، الملطخة باللون الأحمر والأبيض، ولاسيما الساحة الواسعة التي كانت تحتوي على ينابيع من المياه العذبة والأزهار الملونة بشتى الألوان، الموضوعة بجانب شجيرات الورود، وعلى أرصفة الطرق الرئيسية والثانوية، والتي كانت مزدحمة بالطلاب والعمال الذين جاؤوا قصد التسجيل وقضاء مصالحهم، كان الباب الأمامي كبير الشكل فوقه لافتة بها اسم و شعار خاص بالجامعة، دخل منه سليم مندهش وفرح من جمال وبهاء المنطقة بمناظرها وتصميمها المنسق، وهو يمشي على الطريق الواسع المؤدي الى الكليات والإدارة التقى بأحد الأعوان الذين كان يعملون هناك في قسم الرقابة والحراسة، و الذي كان يرتدي بدلة شغل زرقاء، رجل وديع ومتواضع،

مسلما، على عينيه السوداويتين آثار المراقبة والملاحظة، حياه ثم سأله:

– هل بإمكانك أن تساعدني حتى أصل الى كلية العلوم الإنسانية؟ أنا جديد عندكم أريد التسجيل فيها

– نعم نتشرف بك أيها الطالب، اذهب من تلك الناحية ثم سر مباشرة الى أن تصل الى درج تجده على يمينك اتجه نحوه وانظر لأعلى المبنى ستجد الكلية

عندئذ شكره سليم وتبع ما قال له حتى وصل اليها فوجد فيها عدة أشخاص يتحاورون ويتبادلون الأدوار أمام أحد المستودعات، حينها توجه الى مكتب التسجيلات وقدم أوراق التسجيل، وبعد مرور عدة دقائق أنهى عمله ثم خرج منها وبدأ يتجول في أنحاء الكلية، التي كانت كبيرة الحجم وجميلة التصميم، وعلى أطرافها وجوانبها زهور وأشجار وطلاب قد جاؤوا من كل مكان، وعيون بها ماء حلو عذب، فتوجه إلى أحد العيون القريبة ليشرب ويغسل وجهه، كان قد شعر قليلا بالتعب بسبب السفر الذي أرهقه والشمس التي انكشفت

وأشرقت بحرها وضيائها، حينئذ غسل سليم وجهه وشرب قليلا ثم استلقى على الأرض تحت شجرة الدردار الخضراء والتي كان يحيط بها العشب والنبات. فوضع رأسه على حقيبته ووجهه الى الأعلى ونظر الى السماء التي كانت صافية، خالية من السحب والغيم، يفكر حيال ماذا سيفعل بعد أن أنهى تسجيله في الجامعة، لكن سرعان ما حمل كتابه من الأرض ثم نهض على رجليه وأكمل سيره باحثا عن فندق ينام فيه، وهو خارج من باب الجامعة الأمامي ودع الحارس:

– شكرا جزيلا لك، لقد أكملت عملي

والحمد لله

– هذا واجبي أعانك الله.

في حين أكمل سيره مارا على أحد شوارع أمستردام وبدأ البحث عن أبسط الفنادق التي لا تتطلب ثمنا غاليا، وبعد مرور نصف ساعة من البحث قرب أحد المقاهي والمطاعم وجد سليم مبنى ليس كبيرا، عليه لافتة مكتوب عليها فندق الراحة، كان شكله مثلث، يظهر جميل ببساطته وتصميمه، وأمام المبنى على الطريق

كانت توجد سيارات كثيرة منها المتوقفة ومنها التي تتحرك، في ذلك الوقت دخل وألقى التحية على حارس الأمن:

– مرحبا

– مرحبا، تفضل أخي الفاضل بما نخدمك؟

تقدم أكثر الى مكتبه:

– أريد غرفة بسيطة، هل هناك واحدة شاغرة للمكوث فيها بضعة أيام فقط

– نعم أهلا وسهلا، نتشرف بك، دقيقة ألقي نظرة على السجل

– رد بهدوء، براحتك أخي

بعد أن ألقى الحارس نظرة على السجل وجد أن الغرفة ذات الرقم سبعة فارغة ولا أحد يمكث فيها فقال له ذلك، ثم أعط له مفتاح الغرفة والرخصة في المكوث، فأمسكه بيده واتجه الى الغرفة، ولحظة وصوله فتح الباب ودخل، فوجد الغرفة صغيرة ونظيفة، مرتبة على أكمل وجه، حينئذ شعر سليم بالراحة التي أعطته تلك الغرفة ذات الجدران البيضاء والتي كان على أحد جدرانها نافذة تسمح بدخول هواء ونسيم أمستردام، كان في

الغرفة خزانة مستطيلة الشكل، يقابلها مكتب صغير، ومائدة خشبية مركونة على الجدار ذات أرجل مدورة وسرير لين واسع لشخصين، سليم حين وجد نفسه وحيدا ومتعبا ألقى بجسده وقال في نفسه موجها الكلام للسرير:

– لو لم أكن وحدي لما انخفضت عليك لأنني أعلم أنك لو كنت بمثل الإنسان لهدمت أسنانك بثقلي هذا، لكن مع الأسف يا صديقي إن الحرية التي أتمتع بها وحدي الآن تصل الى أن أفعل ما أشاء فسامحني، أنا الآن متعب أريد أن أنام!

إن ما قاله سليم كان اتصال من القلب، حينما أحس أنه فعل خطأ صغير قد يقلق من أدبه وأخلاقه! مع العلم أنه كان وحده فتوجب عليه أن يطلب الصفح رغم أن السرير شيء جامد لا يتكلم.

إن الأرواح الطيبة والسلالة النقية غالبا ما تشعر بها عندما تراها نائمة بوجه بريء صاف من الأحقاد والأخطاء غير أننا في الوقت الحالي نعلم أن الأقلية من يفهمون ذلك أم البقية إلا من رحم ربي، فكثيرا ما نجد أناس لا ذهن لهم يفكرون به تفكير

سليم، ولا وعي ولا صحة تقيمهم وتوقظهم من غفلتهم، ومن سوء تقصيرهم على مسامحة الغير

****

في المقهى

نهض سليم الرشيق نشيطا، بعد نومه مدة ساعتين، كالرجل الحيوي الذي فعل تمرين رياضي قصير وهو في حديقة خضراء بها نسيم طلق فسيح، ليكتشف الحقائق المستورة من وراء الستار ومن طرف الحياة التي لا تعليق لها في الوقت الحالي. في حين أخذ ملابسه من رف الخزانة ثم ذهب مباشرة الى الحمام واستحم سريعا وبعدها توضأ وصلى صلاة الظهر، ثم لبس لباسه وحذاءه وخرج متجها الى أحد المقاهي بجانب الفندق والدكاكين الموازية، ساعته كانت تشير الى الثانية زوالا إلا الربع، في هذا الوقت كانت الشمس في كبد السماء، مشرقة وبقوة، كانت بشوشة مبتسمة في وجه كل إنسان طموح وهادف.

المعلوم أن سليم كان يعرف تماما لما قدم هنا، وعلى أي أساس يريد أن يخرج في الأخير، طالما هو يفكر بعقله الواعي، لو رآه أحد منكم لوجده يبدو في بادئ الأمر إنسان غريب وغامض، لا يحب التحدث كثيرا أو مخالطة البشر كان كل ما يجعله إنسان صارم ومفكر، طبائع الناس، غالبا ما يجد نفسه وحيد في مختلف

الأماكن المعينة كالحديقة أو البحر، في حين تجد أفكارا وأوهاما تتلاطم في داخله، مرات يكون يريد إجابة لأمر ما ولكن لا يلمس ذلك إلا بعد شقاء وعناء، مما تراه هكذا يفضل العزلة في الوقت الراهن، حتى يكتسب الوقت أكثر، وهذا لا يدعو أنه إنسان انطوائي، بالعكس فهو شاب ناصح ومرشد، مبادر، يحب الغير، وعلى حسب طبيعة الشخص المقابل يساعد، محب للإنسان والحيوان، شفوق وهادئ، إنه يتمتع بعدة صفات مثله مثل القهوة التي طلبها للتو والتي وضع فيها ثلاث ملاعق من السكر، كان المقهى في الداخل واسع، مرتب ومنظم، يحتوي على العديد من الكراسي والطاولات، وبعض الوسائل، كان بعض الناس هناك يجلسون بطرق مختلفة، فيهم من يمسك كتاب ويقرأ، وفيهم من يتحاور مع أصدقائه، وهناك من تجده مع ولده أو ابنته جالس يمازحهم ويلعب معهم، أما هو فقد اختار أن يجلس في وسطهم، خارج المقهى، في الساحة النظيفة التي كانت تحتوي على عدة طاولات مستديرة الشكل، سوداء، كافية لجلوس أربعة أشخاص، كانت هناك شجيرات حولها سياج

يبقيها على حالها من عنف الريح أو العاصفة، وبعد أن استقر في طاولته يشرب في قهوته الحلوة، ناد النادل مرة أخرى:

– أريد كأس من الماء وجريدة أخبار؟

رد النادل بخفة، الذي كان يرتدي بدلة عمل خاصة، حمراء، عليها أزرار بيضاء، كان يبدو أنيق بمظهره وشكله، وعلى ملامح وجهه الرقة والمعاملة اللينة:

– نعم سأرجع

انصرف النادل مسرعا لجلب الطلبيات، وها هو ذا سليم ينظر الى الناس الذين حوليه في المقهى، كل الناس الذين كانوا هناك غرباء، نعم غرباء، لأنه كان لا يعرف أحد في هذه المدينة الكبيرة، وعندما رأى مجموعة من الأصدقاء يتناولون وجبات خفيفة في جماعة ويضحكون ويبسطون، شعر بشعور مقرف وحزن داخلي خفي، فصرف نظره عنهم، ونظر في اتجاه معاكس نحو الطريق العام، الذي كان مزدحم بالسيارات ووسائل النقل، حيث بقي عابس لبرهة. وإذا بالنادل يأتيه بكأس من الماء وجريدة أخبار مطوية في طبق، فيمسك عنه ذلك:

– شكرا أخي

– العفو، نحن في الخدمة

ثم يفتح الصحيفة ويبدأ بالقراءة ملقيا رأسه بالكامل فيها. الشاهد أن سليم عندما شعر بالقرف والحزن لا يوحي أنه يريد أن يحدث شخص ما أو يحتاج لشيء يسعده، أو في قلبه حقد أو ضغينة، إن الإنسان بطبعه عادة ما يشعر هذا الشعور الغريب اتجاه أمر ما! ما دام هو يعيش في هذه الحياة متقلبة المزاج، إذن لنعش كما قدر لنا ولأمثالنا. وها هو ذا يقرأ بهدوء يأتي شخص غريب متجها الى الطاولة التي يجلس فيها، أسمر ذو شعر أسود، على عينيه نظارات شمسية سوداء، رشيق القامة، نحيف الجسم، يلبس لباس صيفي أسود من الأسفل الى الأعلى، لو رأيته لخيل لك أنه يعمل في قطاع الدولة، شاب حازم وجريء، عمره لا يتجاوز خمسة وعشرون سنة، يقطن في إحدى ضواحي المدينة. جلس على المائدة وبقي ينظر إليه، غير أن سليم كان مشغول بالقراءة، كانت الصحيفة تغطي وجهه تماما، وإذ بالرجل الغريب يلقي التحية عليه مصعرا خده باتجاه

الجالسين هناك على طرفه دون أن ينظر إليه بوجهه الجاف، فسمعه ثم أنزل الصحيفة ورآه، رد عليه التحية وهو ينظر إليه نظرة ثاقبة في وجهه، متناولا رشفة من القهوة وينتظر الجديد حول ما جاء به هذا الغريب، الذي كان يظهر عليه متكبر في بادئ الأمر!

– من أي مدينة أنت؟ يبدو أنك لا تنتمي لهذه المدينة؟!

– وكيف عرفت يا أخي؟

أمسك الرجل بالنظارات ووضعهم على الطاولة وقال:

– ألا تعرف لمن هذا المكان الذي تجلس فيه؟ أشار بيده

– لا لكن فهمت شيئا، أنت من أمستردام، صح؟ على كل حال، أنا من روتردام، جئت طالبا العلم، ولم أبدأ بعد

سخر منه الرجل في صمت وبدأ يضحك ويقهقه من قوله، في حين أحس باستهزائه وازدرائه من طريقة تصرفه وملامح وجهه، حيث أدرك أنه لا يدرس وغير مؤدب ولا علم له، وهو سوى رجل شوارع، كما أنه كان يبدو له أنه يملك أسرار من وراء تلك القهقهة التي كشفته، وهزمته داخليا، فقال له:

– أخي ما الذي يضحكك أم أنك تكره العلم؟! يقال أن الضحك يولد الفشل صحيح؟

– فقط استغربت من أولئك البشر الذين يأتون من مدن مختلفة لطلب العلم، وفي الأخير لا يجدون منصبا، ولا حتى عملا يسدون به حاجتهم، الفائدة غالبا للسلطة، ألا ترى أنك أفنيت عمرك في طلب العلم دون أن تكسب ورقة رابحة! وحتى وإن ربحت شهادة فلن تجد عملا كما تخطط أو تتمنى، العمل الآن لأصحاب الطبقة الرفيعة، وأنت تبدو من ملامح وجهك وكلامك الرزين أنك إنسان شريف وبسيط لا تملك المال الكافي للتعامل مع أصحاب الرشوة الذين ينكبون نحوك بمجرد إعطائهم ذلك، هيا قل لي كيف ستحلها كونك فقير بائس

وضع يديه على المائدة ورد عليه بوقار وثبات:

– إذن أنت تعتمد على المال، وهل يفيدك المال إن كنت تعلم أنه حرام، وكيف ستجني المال إذا لم تشقى في هذه الحياة، وتعتصم بالله وتثق فيه! الرزق بيده أليس كذلك؟ والفضل دائما يعود إليه، يا صديقي المال في هذه الحياة ليس كل شيء، إن

من أهم الأشياء في الحياة أن تؤمن بأن الله يرزق من يشاء ويذل من يشاء، والذين تتحدث عنهم وهم يعملون الآن فمعظمهم يعيشون في ذل وذم وربما حتى في استعباد كامل، ونحن على لسان النبلاء البسطاء إذا رزقنا الله فحمدا وشكرا له، وإذا لم يرزقنا الله فحمدا وشكرا له، نحن معه في كل الأحوال، هو ربنا ونحن عبيده نحسن الظن به، وكما تقول أن دون رشوة لا عمل. فسامحني أراك قد بالغت في كلامك هذا لأنك لم تفقه الأمور جيدا وأنت تنظر من الناحية السلبية ولا تعرف أن الأعمال الصالحة والعلم النافع يجعل الإنسان متفوق وجدير بالذكر ذو مقام عند الله سبحانه وتعالى، صدقني ستجد العمل والمال وكل شيء، فقط إن اعتصمت بخالقك، دعك من هذه الأمور السلبية الفانية، الآن يا أخي أتمنى أنك فهمتني كيف سأحلها؟ أكيد سلاحي ربي. لتعلم هذا

– ابتسم الرجل فجأة ثم قال مندهشا، أنرت المدينة بأقوالك هذه، في الواقع أول مرة أجلس مع إنسان مثلك وأسمع مثل هذا الكلام الإيجابي، إنني غالبا ما أشعر أني إنسان متشرد

ومتمرد، معظم آرائي خاطئة، قليلا ما تجد أشياء إيجابية في ذهني، الذي يكاد ينعزل تماما بسبب الجهل الذي صدمني وأنا صغير، وبعد أن انفصلت عن الدراسة في السنة الخامسة ابتدائي صرت أصاحب المشاكسين الذين لا أهداف لهم، كانا والدي غالبا ما يرشدانني لكي أدرس غير أنني لم أكن أستمع لهما وأتبع أوامرهم، واتبعت هوى نفسي فوجدتها محاطة بأناس مثلي، لا يعرفون القراءة ولا الكتابة، كل ما يعرفونه السطو والسرقة وأكل مال الحرام بمختلف الآفات، ما عساي أقول لك يا أيها الغريب، أسعدني الحديث معك، أنا ذاهب..

أمسك بنظارته الشمسية ووضعها على عينيه الخضراوين ثم قام من كرسيه وعند قيامه ها هو يمسكه من يده اليمنى:

– توقف قليلا لم نتعرف بعد، لا تحزن عن الماضي، بل فكر في التغيير والتنفيذ فيما بقي من أيام، على كل حال، أنا اسمي سليم وأنت؟

– تقدم وهمس في أذنه، أما أنا اسمي خليل وأريد صديقا مثلك، يساعدني على مواجهة عثرات وعقبات الحياة، في الحقيقة تبدو لي شاب ناصح ومرشد ولولا معرفتي هذا لما قلت لك ما قلت

عندئذ وضع سليم الصحيفة وثمن القهوة على الطاولة، وقام من كرسيه قائلا له:

– هيا بنا يا صديقي خليل دعنا نذهب ونتسبب.. الآن صح كلامك

****

في المقهى

(تابع)

إن الاختيار الصحيح للأصدقاء لا يحتاج الى تفكير أو خطة، وإنما يأتي كل شيء كما هو مبني له حسب سر من أسرار الحياة، يكافئ أن هناك قوة هائلة جاذبة تجعل المعاملة بين الغرباء أصدقاء، وبين الأعداء أصدقاء، ألا تجد أن هذا يحدث في هذه الحياة؟ هل شعرت يوما أن كل شيء يحدث وفق حكمة ربانية ومبدأ أساسي؟ وهل جعلت لنفسك مبدأ؟ وهل حددت هدفا لكي تعمل على تحقيقه وكسبه؟ أغلبهم سيقولون لا، إن الحصول على شيء وكسبه يجب أن يكون حسب وضع خطة تنير دربنا المظلم وتسعدنا سعادة إنسان يشعر حقا بأن له حق في هذه الحياة، يجب أخذه، زد على ذلك، كيف كانت حياة خليل الذي لم يحدد هدفه في الحياة ولم يسمع لكلام أبويه اللذان أحبا له كل الخير، لقد تبع نفسه الغافلة ونفسه قادته الى العيش في الشارع، الطاعة تلعب دور كبير، لو أطاع يومها والديه وسمع كلامهما لكان عكس ما هو عليه الآن، لكان فهم فهما يقينيا

أنهما السند وهما الرضى والصدق، لكن للأسف اختار قراره العقيم وفات الذي فات، وهل يستطيع تغيير نفسه الآن بعد لقائه بسليم، صاحب الخير والمحبة، النصح والإرشاد!

ينبغي ألا ينتظر الإنسان غيره ليغيره، خاصة في وقتنا الحالي، بل الإنسان على نفسه بصيرة، ونور غرسه سبحانه وتعالى في أنفسنا يستطيع أن يلمسه بإرادته، وأن يجد سبيل النجاح في هذه الحياة، وأن يغير من نفسه تغييرا، نعم خليل كان ضعيفا والضعيف فاشل والفاشل يحتاج الى من يعينه بعد أن يعينه الله ويشاء، فينير له الطريق الذي سيخرجه من دوامة الإعصار الذي رمى به في الشارع، وأخرجه من ذاته الحقيقية الى ذاته الخيالية! ونحن ندرك في باقي الأمر أننا نحن البشر مهما وجدنا من يعيننا في هذه الحياة فلا يجب أن ننسى من خلقنا وأحسن صورتنا لأنه هو المعين، المصور، فدعني أقول لك وأوضح لك أن سليم وكأن الله من سخره ليعينه ويساعده على الوقوف من جديد، أليس كذلك!؟ (أحببت أن أوضح لكم تلك الأمور لأنها مهمة بالنسبة للجميع)

عندما غادرا الصديقين المقهى نحو البحث عن الرزق قيض الله العمل لسليم حتى يكسب بعض المال، يسد به حاجياته مع العلم أنه لم يبقى له الكثير لكي يبدأ الدراسة.. إلا أنه قرر العمل والتوكل على الله الى ذلك الحين في أحد المطاعم الكبيرة، في قلب أمستردام، كنادل لاستضافة الزوار وتقديم لهم الطعام والشراب.. ويعود الشكر بعد الله سبحانه وتعالى الى خليل الذي وجد له هذا العمل الوفير، بعدما أحس وعرف أنه جاء من مكان بعيد قصد طلب العلم، وطالب جامعي كهذا ولابد أن يحتاج قدر من المال يساعده في قضاء بعض الحاجيات الخاصة به، كان ذلك بفضل الوسيط، أحد أصدقائه، الذي كان يعمل في المطعم، حين صرح له عن ماهية سليم، فقد ساعده الصديق أيضا وقال للمدير ذلك فاستقبلهما ورحب بهما وقدم لهما وجبة خاصة عبر بها عن كرم ومذاق المطعم.. والذي قبله في الأخير لفصاحة لسانه وجمال خلقه ومنبع مجيئه من روتردام حيث أعلمه أن يبدأ العمل بداية من الغد، كان قد فرح لحظتها وشعر باحتضان واهتمام الجميع له، فشكرهم

لحسن معاملتهم وعملهم وكرمهم، حينئذ غادرا المكان، فشكره مرة أخرى وهما يسيران معا في الطريق العام ثم ألح وقال:

– بما أنك ساعدتني في إيجاد عمل يا عزيزي فلا بد أن أرد لك الدين وأشاركك البحث، فنكون قد تعادلنا ما رأيك؟!

في حين أظهر خليل سيجارته وأشعلها وبدأ يدخن ثم قال له ودخانه يتصاعد في السماء:

– لا تهتم يا صديقي، أنا دائما أجد ضيق وفشل في العمل ولو كنت أريد ذلك كنت قد أجبرت نفسي على العمل في المطعم قبل أن أعرفك، لكن لا تقلق سأثبط نفسي وأنظم حياتي أولا، يكاد يتلاشى.

– فقطع كلامه ونظر إليه نظرة تآخ، أنا آسف على هذا السؤال ولكن قل لي ما بك؟ إذا كنت لا تعمل فكيف تعيش؟! حدثني عن عائلتك؟ ومن أين يأتيك المال لشراء هذه السيجارة الوسخة، لماذا لا تقلع عنها؟

شعر بالارتباك والإحراج فأطلق من يده نصفها المشتعل يسقط على الأرض، ثم دهسها برجله وقال:

– تبا لك كم تذوقتك وكم وكم! لقد جننتني وقتلتي كياني ونزعتي وجداني.. يا إلهي ماذا يحدث لي؟ أنا أقتل نفسي بنفسي

– شعر أنه أصيب بنزعة حادة تذكرها فأسنده الى صدره وقال، لا تقلق يا أخي ستفلح إن شاء الله في الإقلاع عن هذا وسنجد العمل، فقط ثق في خالقك فإنه يمهل ولا يهمل، لا تحزن يا خليل، أنت إنسان طيب، لقد شعرت بذلك من نبرة صوتك وحياء ضميرك، أنت تملك روح طيبة فلا تحزن ستنتصر وتفلح إن شاء الله، لكن قل لي أنت صريح معي منذ أن عرفتك ما الذي تخبئه في جعبتك؟

لزم الصمت قليلا وأجابه في وقار:

– يا صاح ولما لا أصارحك، أنا رجل ميت، منذ أن توفي أبي وأمي في حادث سير، لي أخت هي الآن تسكن مع جدتي لا أعرف كيف حالهما الآن! لقد رميت بنفسي في الشارع كالمتشرد، سنين عديدة، باحثا عن شيء ينسيني ألم فراقهما الذي مررت به بعد وفاتهما، اللذان تركاني دون أن يرضا عني، وهل هم راضين! وهل أختي التي تركتها بعدما أن جرت الفاجعة

لازالت تحبني؟ أنا الآن لم أرها منذ خمس سنوات، أنا مشتاق لها كثيرا، أنا مشتاق لجدتي أيضا، هذا ما بقي لي من دمي، لو تعلم لقد وجدت نفسي محاط برفقاء سيئين جدا، كان همهم المصلحة الشخصية فقط منهم من كان يسرق ومنهم من كان يزني، ومنهم من يتعاطى المخدرات ويشرب المحرمات، مؤسف، مؤسف جدا، الحياة ليس لها رحمة، لقد عشت هكذا محاط بهؤلاء الأوغاد، تعلمت منهم ما تعلمت وأخطأت ما أخطأت. وأنا معك الآن أتمنى أن أكون قد أستطيع تصحيح كل أخطائي التي فعلتها وأبعث الروح في نفسي من جديد، حامل راية الأمان والاطمئنان في جوفي وعلى نفسي، يا أخي إني صارحتك ولا أريد أن يحدث معي شيء آخر مؤلم، كفاني ألما مما عشته من قبل، فقط قل لي هل هناك سبيل للنجاة رجاء؟

– أنا أشعر بك وبما تمر به من مأساة ومعاناة وفراق، أمر صعب لكن يجب تقبل ذلك، حقيقة الوالدان سندان ترتكز عليهما في الحياة، ولتعلم أن دعاءهما لك وحنانهم ولطفهم وإحسانهم وكل

شيء يقدمانه لك من أجل أن تكون بخير وسعيد، فعلوه من أجلك وفقط، أنت لا تدرك ذلك، وأعلم أنهما أحباك ولما كانوا ينصحونك إذا! إني أشعر بك صدقني، أنا أشعر بألمك الداخلي وأشعر بالطفل الصغير البريء الذي هو في صدرك عاجز عن الحركة، أعلم أنه يصرخ يريد الحرية، وأعلم أنك تعلم وتفقه أمور، مع ذلك تخطأ، أعلم، أعلم أخي، إن الإنسان بني على خطأ، وليس العيب في الخطأ، كلنا نصيب ونخطأ، إن أصالة الخطأ تولد شحنة الرحمة وتشعل جسد العابد ويجعل من الإنسان ضميرا حيا وقلبا نقيا مليئا بالحب والسكينة والاستقرار، سأكون سندا لك طالما أنا حي، وسأدعو لك الله أن ينير دربك وينصرك ويغفر لك ويبعدك عن المجرمين، فقط ساعدني في أمرين هل توافق؟

– أجل صديقي العزيز

– الأمر الأول وهو يجب أن تعقد النية، تندم وتتوب توبة خالصة وصادقة لله سبحانه وتعالى لا عودة فيها وتقلع عما يؤذيك، الأمر الثاني يجب أن تعود الى أختك وجدتك وتطلب

منهما أن يسامحانك على غيابك وأن تكون معهما وقت الحاجة، وفي معظم الأوقات، سنبحث معا وستجد إن شاء الله العمل وأنصحك أن تبتعد عن كل أولئك الغرباء المزيفين وتعيش مع أهلك ما تبقى لك من حياة، وأرجو من كل قلبي أن يسامحانك وأن يعفو الله عنك، وأن تكون مخلصا له من الآن، خليل عزيزي إن أبواب التوبة مفتوحة عند الله ولو أخطأت ألف مرة بجهالة سيكون دائما في انتظارك للرجوع إليه، فاعقد النية وابدأ حياتك من جديد يا أخي الودود ولا تتأخر

فجأة نزلت دمعة دافئة ولامعة من خده منسكبة على شفتيه، لم يسيطر على إخفائها، فزاد على كلامه..

– وهل سيغفر لي؟

– أكيد ولما لا يغفر! يا أخي ضع هذا في دماغك من الآن إن الله عفو غفور رحيم ورحمته وسعت كل شيء

أكمل يبكي بشدة وها هي الدموع تنسكب على وجهه وهو يردد:

– ما أرحمك يا الله.. ما أرحمك يا الله.. ما أرحمك يا الله!

– احتضنه بشدة، الله أعلم بحالك تحضر للجد.. المجد لله

ثم تنحى عنه وشكره بوجه خمري مبتسم ابتسامة منير:

– شكرا لك.. أنا الآن ذاهب لابتهل، سأمر عليك غدا عندما تنتهي من العمل، موفق إن شاء الله

– تمام الى اللقاء، سأرجع الى الفندق، في أمان الله.

عندئذ انفصل وانصرف كل واحد في طريق وها هو ذا خليل يجتاز حديقة الألعاب التي كانت لا تبعد عن المطعم الذي وجد فيه سليم العمل إلا أمتار قليلة، وهو يقول في نفسه:

– اللهم يسر إنك أنت الميسر

وإذا بسليم ينظر إليه من بعيد وهو يقول في عمقه:

– اللهم أنصره وثبت على الدين

في حين التفت أمامه وأكمل سيره ورأسه منحط نحو الأرض وهو حائر في أحوال البقية ويتساءل:

– كيف هم يعيشون؟ ما مصير المجرمون إذا لم يجدوا من لا ينصحهم ويرشدهم ويدفعهم لفعل الخير؟

رفع رأسه وأتم سيره وهو يتأمل في شوارع أمستردام التي تزاحمت بالسيارات وحافلات النقل الصاعدة والنازلة على الطريق، ثم توقف على سياج الملعب الموضوع بجانبها وهو ينظر بعمق الى أشكال الناس هناك جالسين في المقاعد يتفرجون على لاعبي كرة القدم ويتحاورون مع بعضهم البعض، يرى من فيهم صاحب الخير ومن فيهم صاحب الشر؟ ومن فيهم المحبوب ومن فيهم المكروه.

يا سليم لن تستطيع معرفة ذلك مهما عللت وارتفعت لأن الإنسان كائن معقد، صعب فهمه، له أسرار كثيرة داخله، في جوفه، لا أحد يستطيع كشفها طالما سيدها مالك الأساس، و إن توفي توفيت معه الأسرار، لتعلم أنك حتى و إن فهمته فهما عميقا وداريته ظاهريا فهذا غير كافي، لا يجزم أنك فهمته تماما بأنه يحبك أو يكرهك، سيء أم طيب، زد على ذلك، أصبح كل الناس غرباء، أتمنى أن تفهم ماذا أعني بالغرباء، غالبية الناس يعرفون بعضهم البعض معرفة وطيدة، ولكن لا يعرفون بعضهم البعض معرفة باطنية، إن الظاهر لا يكشف الباطن بل يخفيه

ويزيده غموضا، لا سبيل لاكتشاف الحقيقة المطلقة، وحده الواحد القهار من يعلم ذلك، الذي له علم السماوات والأراضين، هل فهمت؟ جيد.

يكمل السير بهدوء متجها الى الفندق ليرتاح ويستقر. وبعد مرور حوالي عشرون دقيقة يصل الى غرفته فيدخل ينزع جواربه وحذائه، يغسل وجهه ثم يتوضأ، يكمل، فينظر بوجهه الى المرآة ويتساءل ما إذا كان ظاهره كباطنه؟

– هل حقا أنا مخلص لخالقي؟ هل حتما أنا صادق؟

لقد أصبح مذعورا وخائفا حينما قص عليه خليل العراقيل والمعاناة التي مر بها خلال مسيرة حياته، وإذا به يلجأ الى الله ويصلي صلاة العصر ويدعو له في الخفاء بالرغم من أنه أمسى شبه حزينا في غرفته إلا أنه استلقى على سريره قانعا واثقا في الله جل جلاله ومدركا أن دوام الحال من المحال.

ثم راح يمسك بالكتاب الذي جلبه معه من بيته، ويقرأ، إنساني بحت يحكي قصة سجناء كاتبها في السجن، كان يقرأ وهو منغمس فيها، وكأنه يريد إشغال عقله بها، وحتى لا يفكر في

هموم الدنيا وفتاتها، في حين أدركه النعاس فنام نوما عميقا بعد أن أكثر من القراءة الى وقت متأخر من الليل، وحينما نهض من النوم في الصباح الباكر وجد الرواية التي كانت على صدره قد سقطت منه للتو، فقال ناظرا فيها:

– آه منك كم أرهقتني وجذبتني بصراحتك، سحقا لقد ضيعت صلاتي بسببك!

وها هو ينهض مسرعا الى الحمام، فاغتسل وتوضأ ثم رجع يصلي ما فاته بالأمس.. وبعدما أكمل صلاته استبدل ملابسه وحذاءه ووضع القليل من المسك الفاخر وتوكل على الله، ذاهبا الى المقهى. فخرج من الفندق وهو يخطو خطوات متفاوتة بإحكام مارا على المراكز التجارية الراقية، كان الجو هادئ والنهار أوشك أن يظهر بشكله النهائي، المكان شبه خال من الناس ووسائل النقل، وحينما وصل الى المقهى الذي ذهب إليه بالأمس وجد المكان مليء بالغرباء الذين نهضوا لقضاء أعمالهم، فجلس وطلب قهوته وصحيفته كالعادة من النادل، في حين بدأ يتصفح ما فيها من أخبار الى أن صارت الساعة السابعة صباحا

فقام من مكانه واتجه مباشرة الى المطعم الذي ذهب إليه بالأمس أول مرة، والذي كان لا يبعد عن المقهى كثيرا، حوالي عشرون دقيقة من السير، الى أن وصل فألقى التحية على مالك المطعم، فرد عليه التحية، كان اسمه سعيد، كبير السن لا يتجاوز السبعين من العمر، بدين نوعا ما، أشيب الشعر، أبيض البشرة، ولباسه لائق بكلامه اللين والرقيق، أسلوبه أنيق، يتمتع بالخبرة في التعامل مع الناس، يظهر أنه ذو قلب نظيف، يحب عماله ولا يترأسهم في شيء، كما أنه يعطيهم راتب في المتناول، مرضي، وبعد اللقاء طلب سعيد من سليم أن يذهب الى إحدى الغرف الخاصة بالعمال لكي يأخذ بدلته الجديدة ويباشر في العمل والتحضير مع العمال الذين كان عددهم في ذلك الوقت خمسة وسعيد ستة، حينها ذهب الى الغرفة واستبدل لباسه و إذا به يكمل فيظهر أنيق الملبس، بشوش الوجه، محترم وعلى عنقه ياقة بيضاء، كان مسرور وفرح بالعمل، نشيط وحار، كالفلفل الحار، خاصة بعدما شعر أن اللباس الأسود زاده ثقة بنفسه لا غرورا، وجمالا حسيا في داخله. المهم أنه عمل حتى الواحدة

مساء، وهذه كانت مدة انتهاء العمل في المطعم، ثم جاء إليه خليل للقائه، الذي كان واقفا في الحديقة المقابلة للمطعم، فلوح إليه بيديه، فرد عليه عن بعد مسافة قليلة وهو يبتسم مشارا له أن ينتظره، حتى يستبدل ملابسه ثم بعد ذلك خرج من المطعم ذاهبا إليه، في حين بارك له خليل وقال له بود:

– ليبارك الله في عملك أخي العزيز، سعدت بعملك اليوم، لقد كنت تبدو كالعريس ببدلة العمل تلك

– خجلا، هذا من لطفك أخي

– ماذا نفعل؟ هل نذهب؟

– أجل هيا بنا لنذهب ونسترزق، اليوم الدور لك عسى أن نجد لك عمل تعين به نفسك إن شاء الله، قل لي كيف أمسيت، هل ارتحت أمس؟

– الحمد لله أنا بخير الآن

– الحمد لله

وبعد أن غادرا الحديقة الجميلة بأشجارها وأزهارها وأطفالها بحثا عن العمل، مرت ساعات وهم يبحثون ويتكلمون مع أصحاب

المراكز التجارية، المحلات الكبيرة، المقاهي، المطاعم، المستودعات، الدكاكين، لكن للأسف دون جدوى، حينها قال خليل:

– يكفي لقد أتعبتك معي اليوم يا صديقي

– لا بأس دعنا نذهب الى المقهى ونرتاح قليلا ثم نواصل البحث ما رأيك؟

– تماما كما تشاء يا عزيزي

اتجها الى المقهى مباشرة، وعندما وصلا جلس كلا منهما على الكرسي بجانب الطاولة السابقة، التي كانت سببا في لقائهما، في حين تكلم سليم:

– هل تذكر يا صديقي تعارفنا أمس.. كان ذلك كنز صحيح؟ ألا ترى أن قدر الله جميل وخير جماله الرفيق المنير

– وهو ينظر لعينيه، أعانني الله واياك على فعل الخيرات والصالحات يا أخي.

وبينما هما يتحاوران مع بعضهما البعض إذ برجل يتوقف بسيارته البيضاء أمام المقهى وبجانب الرصيف، يظهر ذو شأن

بلباسه الرفيع والراقي، يتبين لكل إنسان أنه من الطبقة الرفيعة، كان قصير القامة، نحيف، أشقر الشعر، عينيه سوداوين، في نحو الستين من العمر، ينظر إليهما مباشرة ثم يفتح باب سيارته ويخرج متجها إليهما ماسكا مفاتيحه في يده ويمشي ببطيء، حتى وصل إليهما فألقى التحية عليهما:

– مرحبا

– مرحبا بك

سليم بقي صامت هنيهة مستغرب حيال هذه الشخصية التي انحطت أمامه، ثم رد عليه التحية أيضا، في حين جلس الرجل معهما على الطاولة:

– هل أنتما من أمستردام؟

– يرد خليل، نعم أنا أما صديقي فلا هو من روتردام وجاء لطلب العلم

أضاف الرجل:

– أنا أقطن هنا وكما تبدوان لي أنكما تحتاجان الى العمل!

– استغرب سليم حيال ذلك فقال له، وكيف عرفت ذلك؟

– أجابه، لقد رأيتكما منذ وقت قصير مضى في شارع ...م تبحثان عن العمل أليس كذلك؟ لقد لاحظتكما تدخلان من محل الى محل فأدركت ذلك، ومنزلي كان هناك فقط، فأحببت بحثكما وقلت في نفسي أن هؤلاء الغريبين يبدوان جيدان في العمل

– خليل يسأله، وما هو العمل يا سيدي؟

– ابتسم الرجل بوقار، هل ترى هذا المكان الذي تجلس فيه الآن مع صديقك

– نعم

وضع الرجل يديه على الطاولة وقال:

– هذا المكان ملكي أنا، وهذا المقهى لي أنا

فإذا بسليم يندهش:

– سبحان الله. ما أرحمك يا رب!

– بينما خليل ينظر إليه ويبتسم في وجهه، إن الله رحيم بالعباد

وإذا بالرجل يسألهما:

– ماذا؟ هل هناك شيء؟

– لا شيء بارك الله في مكانك هذا، قل لنا ما هو العمل بالضبط؟

– أنا أريد منكما أن تعملوا في هذا المقهى الخاص بي

– سليم بود، أشكرك من صميم قلبي ولكن أنا آسف لقد وجدت العمل البارحة فقط، لكن هذا صديقي للآن لم يجد عمل فقررت أن أبحث معه حتى يجد عمل.. وإذا بك أنت أتيت إلينا الآن قاصدنا وهذا ما حيرنا وأدهشنا

– إن سمحت لي فسأعمل، أنا موافق وأتمنى أن أكون عند حسن ظنك

– فليكن لك ذلك، أنا وثقت بكما منذ أن رأيتكما تبحثان في حر الشمس.. والآن سأترككما، لتأتي غدا صباحا وتباشر في العمل هنا، سأوصي أرثر عنك، القائم على المقهى

حينئذ فرح بقبوله وشكره شكر خاص، بينما رفيقه نهض من مقعده وشكره هو أيضا:

– أتمنى أن يجزيك الله بما قدمته لصديقي

– العفو، الى اللقاء.

ثم انصرف وبقي الصديقين جالسين مع بعض مبتسمين يشكران الله ويحمدانه كثيرا على ما أهداهما، وإذ بخليل يقول:

– إذا حان موعد ذهابي للقاء أهلي، يا ترى كيف هما الآن؟ هل أختي هي سعيدة في غيابي؟ وجدتي؟ ألا تظن يا سليم أن كبار السن لا يعانون من المرض؟ أنا خائف من أن تكون جدتي مريضة

– سيكون كل شيء على ما يرام فقط اعتصم بالله، لأنه كما رزقك بعمل وأنت جالس الآن، سيرزق جدتك الصحة والعافية، عليك أن توقن أن الأعمار بيد الله، يجب عليك أن تذهب الى زيارتهما وفي أقرب وقت يا أخي، وأكيد هم يشتاقون اليك كما تشتاق إليهما، وأنا أعلم أن الأقارب ليسوا بمضيعين دمهم ولحمهم

– يا صديقي لقد أتعبتك حقا كان ينبغي عليك أن ترتاح من عملك اليوم، يكفي أنك أرحتني ووجهتني، بسببك وجدت العمل فلو لم نأتي لهذا المقهى لما تم الأمر ربما! أشكر الله على كل شيء

– ابتسم ضاحكا، لقد قمت برد ديني لك.. أممم

– يبادله البسمة، أجل لقد فعلت وكفيت، الآن أتركك ترتاح، سأذهب لزيارة أهلي غدا إن شاء الله، أتمنى أن يستقبلونني ولا يعاتبونني، أدعو لي أن أراهم بخير

– لتذهب يا دمي، ثق في الله، وإن شاء الله تجدهم سعداء، بأحسن الأحوال، سأغادر أنا أيضا، نلتقي أخي

انصرف كل واحد منهما ذاهب في طريق، حيث اتجه وقتها خليل الى أحد المنازل القريبة من المقهى الذي كان يسكن فيه.. كان قد استأجره منذ أن غادر أهله الى اليوم، كان يبدو بسيط ونظيف، صغير المساحة، يحتوي على غرفتين ورواق ضيق، فناء وحمام، غرفته كانت تحتوي على سرير خشبي كافي لمكان واحد فقط، ومائدة بجانبها مقعدين، وخزانة صغيرة، قديمة الشكل. ذهب مباشرة إلى الحمام، اغتسل ثم صلى صلاة العصر، بعدها حمل المصحف وبدأ يتلو آيات القرآن بإحكام. ما أجمل أنت تكون في مثل هذا الجو المكون من النسيم الهادئ والسكينة الملقاة على هذا القلب التائب، إننا لا نشعر بذلك (قراءة

القرآن) حتى نأخذه بإخلاص وصدق وفي خشوع، لوجه الله وحده سبحانه وتعالى، وتيسيرا منه سننتصر، لقد جعله الخالق إنسان محب للصلاة وقراءة القرآن، كما أنه أبعده عن آفة التدخين، فقد اقلع عنه منذ أن نوى في قلبه، نية صادقة، زد أنه قرر أن يبتعد عن المجرمون الذين أفسدوا حياته وجملوها له، لقد قرر في وقت قصير فقط، وكما يبدو الآن أنه أصاب القرار. إن الأصدقاء معادن قد تجد الأخ الذي يعينك في كل شيء، وقد تجد الذي يسلب منك كل شيء، فلتقدر ولتنتبه مع من تعيش، لتصمم على النجاح في الحياة ومساعدة الغير، والعيش مع الأهل مطيعا لهم، وأن تبني مستقبل زاهر مبني على الأمن والاستقرار، الحب والصدق. وإذا عدنا الى العبد التائب فقد نجده قد أكمل ترتيل الآيات القرآنية المحكمة ووضعه على المائدة، وبعد سويعات قام يصلى صلاته ثم استلقى على سريره وأخذ يذكر الله في قرارة نفسه حتى غفا ونام، في حين أدركه حلم.. كان يبدو جميل فقد وجد نفسه صغير مما هو عليه الآن بهندام جميل، وإذ بأمه وأبيه يقودانه ممسكين يديه الى إحدى

الحدائق الملونة والكبيرة مساحة، كان لونها أخضر؟ أخضر لوفرة الأشجار الطويلة والتربة اللينة الحمراء والرمادية، والأزهار الملونة الموضوعة على شكل حقول، كانت الحديقة تحتوي على العديد من الألعاب البسيطة حيث كان الأطفال الصغار يلعبون عليها، ووالديه ينظران اليه ويبتسمان وإذا به يسألهما:

– أبي أمي قولا لي أين نحن ذاهبان؟ ما هذا؟

– يا بني هذه هي الحديقة لقد أردت أن أسعدك كما يسعد كل أب ابنه

أضافت أمه:

– بني العزيز لقد وصلنا لهذه الحديقة وهنا ستجد فيها ما يرتاح به قلبك وخاطرك، وحتى تفرح وترضى، سأفرح كثيرا عندما أجد كل الناس تهتف باسمك وتبتسم في وجهك ولتعلم أن السعادة تبدأ من تلك اللحظة تماما، وأن الجو هنا يختلف عن بقية الأجواء في الخارج! والآن يا بني اذهب والعب ونحن نشاهدك

وإذ به يذهب ويبدأ باللعب وما هي إلا لحظات قصيرة فينظر الى الكرسي الذي كانا يجلسان فيه، فيجد المكان فارغ لا أحد، يبدأ بالبكاء والصراخ حتى استيقظ من نومه فجأة، مذعور وخائف، فوجد دموعه تسيل من وجهه ورأسه على وسادته وهو يردد:

– سامحاني.. سامحاني..

في حين نهض من سريره واغتسل ثم صلى صلاته ودعا لوالديه كثيرا، بعدها هيأ نفسه وتوكل على الله متجها الى المقهى، على الساعة السادسة والنصف صباحا، كان المنزل لا يبعد عنه كثيرا، حوالي عشرة دقائق من السير فقط، وبعدما وصل الى هناك وجد السيد أرثر جالس على الطاولة يشرب قهوة الصباح، والذي كان رجل نحيف البدن، طويل القامة، وعلى وجهه نظارات ضوئية، في نحو الستين من العمر، على شعره قبعة سوداء، بشرته سمراء، وعينيه صغيرتين، لباسه بسيط، كلاسيكي، يظهر عليه أنه شخص هادئ وصامت، لا يتحدث

كثيرا. فوجه التحية إليه، فنظر إليه أرثر القائم على المقهى فأدركه، ثم رد عليه التحية وأردف قائلا:

– نتشرف بك.. لقد أوصاني السيد ميوف أن أهتم بك، لهذا يمكنك بداية العمل الآن، وأي شيء تريده أنا في الخدمة، اذهب الآن استبدل ملابسك

– شكرا لكما لن أنسى مساعدتكما

حينئذ ذهب يستبدل لباسه ثم بدأ العمل بيسر وإتقان، كان الجو هادئ في الصباح لكن مع ضجيج الناس وكثرتهم في المقهى جعل الحال متغير قليلا.. وعند الساعة السابعة يأتي سليم من الفندق متجها الى عمله، مارا على المقهى، فلاحظ قدومه خليل فأسرع جالبا له قهوة الصباح وهو مسرور فرح:

– صباح الخير يا صديقي، كيف كان نومك البارحة؟

– تمام الحمد لله يا أخي وأنت كيف جرى معك الحال؟ أنت أنيق وجميل اليوم

– شكرا لك عزيزي، ما عساي أقول لك، لقد رأيت أمي وأبي في الحلم ولقد أسعداني كثيرا، كما أبكياني في الأخير، ولست

أشك في شيء فلقد كانا مهتمين بي جيدا، هل تعرف؟ لقد شعرت بحبهما في الحلم، لو تعلم لقد أمسكاني من يدي فشعرت بحنانهما وقربهما

– خيرا إن شاء الله، ثق في الله فإنه لا يظلم أحدا، ربما هذه رسالة من الله يبشرك بها!

– لقد قررت أن أذهب عندما أكمل العمل وأزور قبرهما، هل تود الذهاب معي؟

– أجل سأذهب معك

– حسنا أنا ذاهب، فيما بعد نكمل عزيزي.

شرب قهوته كلها ثم نهض فقال:

– اسمع دقيقة.. ومتى ستذهب للقاء أهلك؟

– حين أذهب لوالدي أولا

– جميل أسعدني ذلك، بالتوفيق يا أخي، سأمر عليك عند انتهائي من العمل، الى اللقاء..

عندئذ انفصلا وذهب كل الى عمله، وبعد مرور ساعات عدة أكمل خليل ذلك الى غاية الواحدة مساء، كان العمل مرهق

قليلا، لكثرة الناس واكتظاظهم، فغالبا ما يكون اليوم الأول صعب ومتعب، وهذا ما حدث له، لحظتها استبدل لباسه ثم خرج ووقف أمام المقهى بجانب الرصيف ينتظر رفيقه الى أن جاءه بعد مرور عدة دقائق، فحياه ثم قال:

– أتمنى ألا أكون أطلت عليك

– لا منذ دقائق فقط وأنا أنتظرك

– هل نذهب؟

– نعم، هيا بنا الى المقبرة

****

شجار وحوار

ركبا الحافلة التي جاءت مارة على الطريق العام بجانب المقهى، ثم جلسا بجانب بعضهما البعض في المقاعد الأخيرة، كانت الحافلة تضم أربعون مقعد، حيث كانت معظم المقاعد ممتلئة من كل أصناف البشر، انتظر السائق قليلا في المحطة خمسة دقائق تقريبا، ثم أكمل طريقه، وبعد مرور نصف ساعة نزلا في شارع ....ت وأكملا السير أمتار قليلة حتى وصلا الى المقبرة، كان المكان خال لا أحد فيه، كانت كبيرة محاطة بسياج وعلى منتصفها باب كبير أخضر، دخلا منه وها هما يمشيان بجانب مقابر المتوفين، فبدأ الخوف والقلق ينمو في قلب خليل فمسك سليم يده:

– هل تعرف قبرهما؟

– أجل أنا أذكر ذلك، لنذهب من تلك الناحية

– حسنا لا بأس عزيزي

وعندما وصلا الى قبرهما وقفا وقال:

– السلام عليكم، أمي أبي. وأوشكت الدموع أن تنهمر من عينيه

– أخي لتدعو لهما، قد يسمعانك الآن

– يردد، اللهم ارحمهما اللهم اغفر لهما ذنوبهما وثبتهما، ادخلهما جنة الفردوس، اللهم اجعل قبرهما راحة وسكينة اللهم اجعل قبرهما نورا يا رب العالمين، اللهم بدل سيئاتهما حسناتهما، اللهم استجب

وها هو سليم يدعو لهما أيضا:

– اللهم أحسن ضيافتهما، يا أ كرم الأكرمين، يا أجود الأجودين، يا رحمان ارحمهما كما ربياه صغير، اغفر لهما وثبتهما يارب العالمين واجعل الجنة مؤوآهما، اللهم لا تعذبهما في القبر، واجعل قبرهما روضة من رياض الجنة..

وبعد أن أكملا الدعاء أمسك رفيقه يمسح عيناه:

– حسنا لقد فعلت ما يجب، فما بقي هو على الله، والله قريب مجيب الدعاء

– معك حق، لقد انفعلت، لا تؤاخذني

– لا بأس

– حسنا لنغادر، الشمس تزداد حرارة

– نعم هيا بنا..

خرجا من المقبرة والصمت يسود الموقف متجهين الى المحطة، لكن وقتها وهما يسيران على حافة الطريق طلب خليل منه طلب فقال له:

– يا صديقي لما لا تذهب معي؟

– الى أين؟

– الى البيت، أنا قلق وخائف قليلا

– لا تخف، أنت شجاع

يسأله:

– هيا أجبني هل ستذهب معي؟

– حسنا سأذهب لكن بشرط، عندما نصل ستدخل وحدك وتطلب منهما الصفح

– لا بأس موافق

أكملا السير الى أن وصلا الى المحطة فركبا الحافلة واتجها الى شارع ....ر حيث كان يسكن خليل في أحد الأحياء هناك، لكن هذه المرة ركبا وهم واقفين بجانب بعض، كانت الحافلة مكتظة بالناس، المقاعد كلها ممتلئة، كان الجو دافئ، والنسيم يدخل من النوافذ كلما ازدادت سرعة الحافلة، الطريق كانت مزدحمة بوسائل النقل والسيارات، في ذلك الحين لزم خليل الصمت وظل يفكر فيما سيحصل، كان قلق قليلا، خائف من ردة فعلهما ويسأل نفسه، هل هم بخير؟ ويجيب نفسه: إن شاء الله أجدهم بخير. وفجأة يصرخ شخص كان جالس في مقعده في وجه الرجل الذي كان جالس بجانبه، يبدو أنهما رفقاء لم يفهما بعضهما البعض، الرجل الذي صرخ في وجه رفيقه كان يبدو صارم وعنيد، متين البنية، يملك عينين ثاقبتين تشبهاني الذئب، سوداوين، كان يرتدي بدلة سوداء، رفيعة، وقبعة زرقاء، ملامح وجهه لا تبشر بالخير، يحمل في يديه حقيبة حمراء، لا يتجاوز الخامسة والستين من عمره. وإذا بزميله ينهض من مقعده ويرد عليه، فيبدأ بشتمه، كان يبدو رجلا

متعصبا قليلا، أقل منه سن، في نحو الأربعين، يلبس لباس في منتهى البساطة، شعره أسود، وعيناه سوداوان، يظهر من الطبقة الفقيرة، رشيق القامة ونحيف، وبعد لحظات ارتفع صراخهما مما جعل سائق الحافلة يتوقف، فيتدخل بعض الركاب وأيضا خليل وسليم لعزلهما وتهدئتهما، في تلك اللحظات كان صاحب الحقيبة قد نزل من الحافلة وغادر منها، لم يشأ الذهاب وإكمال الطريق معه، فبقي زميله في الحافلة فاستقر في مقعده ثم جلس معه سليم وبقي خليل واقفا أمامهما:

– ماذا بك يا أخي؟

– بغضب، لا شيء

أضاف خليل:

– إذا كان هناك ما نستطيع مساعدتك فيه فنحن في الخدمة

– يردف مرة أخرى، نعم نحن في الخدمة، لا تغضب

– لزم الصمت ثم قال لهما، من أنتما حتى تساعداني؟

– فاعلي خير فقط، أنت من أمستردام؟

– لا بل ذلك الوغد الذي نزل للتو

أضاف سليم:

– ولما وغد، أليس صديقك؟!

– أبدا، لم يكن يوما صديقي، بيننا عمل وفقط

– خليل، الظاهر أنكما تشاجرتما بسبب العمل

– نعم معك حق

– لم تقل لنا من أين أنت؟ أنا من روتردام وصديقي هذا من أمستردام

– روتردام! أنا أيضا من هناك لكني لا أعيش كثيرا هناك لأنني أعمل جندي في الجيش وهذا ما جعلني بعيد عن المنزل

أضاف خليل:

– هذا جميل، لا يظهر عليك

– توقعت هذا، أصحاب الجيش معروفين من وجوههم

– ماذا تقصد؟

– لدي أخ أكبر مني سن مثلك هو أيضا يعمل جندي

– أين؟

– في ماسترخت

خليل يتعجب:

– جميل، لم تقل لي!

– لم تسألني

– أمم... كيف نسيت!

الزميل يشير لسليم:

– لكني لم أعرفك

– أنا أيضا، من مكان واحد ولا نعرف بعضنا البعض! على أي حال أنا اسمي سليم وهذا صديقي خليل

– تبدوان رفيقان جيدان، اسمي ليو وأكيد أنا أكبر منكما سن

أضاف خليل:

– نعم هذا واضح، لكن لما لم تكشف لنا عن ماهية الشخص الذي كان جالس معك، هل يعمل معك في الجيش، يظهر كبير السن أيضا، ولما قلت عنه وغد؟!

– ليبقى ما سأقصه لكما سر

– يردا عليه بنفس الإجابة، أكيد ولما نكشف السر!

– هذا الرجل الذي رأيتموه للتو هو جندي متقاعد، برتبة جنرال اسمه فان وهو بارون مخدرات، أحد موزعي السلع الكبيرة في أمستردام وفي داخل ثكنتنا، له رؤوس خارجية وداخلية يتعاون ويعمل معها حيث تساعده في إدخال سلعته وتوزيعها على المتعاطين

وهو يفكر:

– أمم.. لقد سمعت بهذا الاسم من قبل

– يسأله سليم، وكيف تتواصل مع شخص مثل هذا؟!

– أنا أعمل مع هذا الشخص منذ مدة ولدينا أماكن مختلفة نلتقي فيها، واليوم بسبب غلاء سلعته تشاجرت معه

أضاف رفيقه:

– ماذا! هل أنت واحد من تلك الرؤوس؟

– حقيقة نعم

– هل تدرك ماذا تفعل؟!

– ليس بيدي حيلة، لقد دخلت عالم الترويج منذ سنين وكل هذا أفعله من أجل أصدقائي الذين هم في الثكنة يذلونهم

ويهينونهم ويظلمونهم، ويفعلون بهم الفاحشة، الشتم، الخداع، السرقة، كل شيء تجده هناك وكل هذا أوصل بهم الى التعاطي والنسيان، بالرغم من أنها تسلية غير أنهم وجدوا أنها تنسيهم آلامهم ومعاناتهم وتفرحهم، لو تعلمون لقد سودوا عيشتهم ودمروا حياتهم وقهروهم، جعلوهم دمى تمشي على الأرض دون أن تنطق أو تتفوه بشيء، إنهم يعاملونهم كحيوانات ضارة، وهم بهذه الآلة (الزطلة) يخففون من آلامهم وبؤسهم هذا لكي ينسوا ما يفعلونه بهم..

سليم في قرارة نفسه:

– هذا ما في نظرهم إذا!

– ليو يردف، وأنا بسبب ذلك الرجل الخسيس سأجعلهم يتعذبون أكثر، الرجل كان يطلب مبلغا معتبرا واليوم جاء يطلب مبلغا أكثر من ذي قبل.. تاجر حقير

خليل يضيف:

– أكيد السلعة كانت في تلك الحقيبة الحمراء، إنه يتاجر وهذه التجارة بالنسبة له أرباح وفقط، إنه يعرف أن كل شخص

يتعاطى ذلك سيدخل مرحلة الإدمان مما سيجعله يرفع من سلعته ويربح أكثر.. سحقا

– لقد أغضبني بسبب هذه التجارة، نعم إنه يحاول سلب كل أموالهم، وبهذا فقد أقحمت نفسي في شيء كارثي، لأنني الوحيد الذي كان يوزع عليهم وعلى قدر أموالهم وحاجتهم لهذه الآلة..

– أنت مجنون! أنت تزيدهم دمارا

يضيف رفيقه:

– إن الطريقة التي تسير عليها ستدفعك الى دخول السجن وربما إلى نهاية مأساوية

– بت أدرك هذا، سيقحمني ذلك الوغد لمثل هذه الأمور لكن لن أسمح بحدوث هذا

– يسأله من جديد، هل أنت مسلم؟!

– أجل مسلم

– آسف.. وكأنك لست مسلما!

في حيرة يسأل:

– لماذا؟

– المسلم لا يفعل هذا

أضاف خليل:

– طبعا أنت تفعل شيء مؤثر حقا

– وماذا أفعل! أنا في مصيبة

– يجيبه سليم، لا بأس اسمعني جيدا، يجب عليك تغيير حياتك من الآن حتى ولو كلفك هذا عملك في الجيش أو حتى نفسك، لتدرك أنك في طريق معوجة، أنت منحرف كثيرا عليك الاستقامة أكثر..

يكمل رفيقه:

– أكيد أنت تتعاطى ذلك أيضا وهذا يجعلك كل يوم تزداد انحرافا وتيها بنفسك

– يستأنف حديثه، خذ بكلامي وإن شاء الله يتوب عليك، جدد التوبة، اندم، يجب أن تكون جدي من اليوم فصاعدا

– أمر صعب، لكن إن شاء الله

– ليس صعب فلتكمل عملك في الجيش هذا ولابد منه، ولكن بطريقة قانونية، أنا أشعر بما يحدث هناك وأقدر قيمة الرجولة، أعلم أن هناك أمور يصعب تقبلها ولكن مع الوقت سوف تشفى وتصبح حكيم ووديع، صبور، هذا إن صرت في الطريق الصحيح، ستصبح بإذن الله تمتلك ميزة تجعلك تجتاز أولئك الأمور بطريقة مرضية ومقنعة، أنصحك لا تسمح لأحد أن يذلك أو يهينك، دافع عن حقوقك بالطريقة التي يجب، وإذا ظلموك الأفضل لك أن تستبدل عملك في الوقت المتاح، ولتتقي الله وتصبر سيجعل الله لك مخرجا

– والأصدقاء!

– أنت تعلم أن الله بين لنا النجدين (طريقي الخير والشر) لهذا كل شخص سيعرف ما يضره وما ينفعه، ما عساي أن أفعل لهم! أسأل الله أن يهديهم وينصرهم ويفرج همهم

خليل يدعمه:

– لتنصحهم أنت وترشدهم بعدما تغير حياتك، ساعدوا بعضكم البعض، إن الله سيقويكم أكثر إذا وجدكم متكاتفين، أخلص عملك واترك الباقي على الله سبحانه وتعالى

– إن شاء الله

– سليم يترجاه، أرجوك إياك أن تعود لمثل هذه الأعمال الوسخة، لتدرك مصيرك حيال فعل مثل هذه المحرمات

– حسنا أدعو لي، أنت رجل طيب، شكرا لنصائحك النادرة

وها هو ينظر لرفيقه ويردف:

– شكرا لك، لا أدري كيف جرت الأمور والتقينا، يا إلهي أكاد لا أصدق ما يحدث وما فعلت!

– خليل يشير لرفيقه بإصبعه، لا تقلق فقط ضع كلامه في رأسك، أنا أيضا كنت منحرف مثلك، لكن أرشدني ونصحني، فعزمت الإقلاع عن المحرمات واعتزلت كل شيء يؤذيني والحمد لله على تيسيره وامتنانه

– شكرا لكما، لقد أخجلتماني وأنتما في مثل هذا السن، أنتما حقا نعم الصحبة

ينتبه وينظر نحو النافذة ويرد:

– العفو

وإذ به يوقف الحافلة فجأة حين علم أنه وصل الى الشارع الذي كان يسكن فيه، فودع الصديقين ليو ونزلا من الحافلة وأكملا يسيران مشيا على الأقدام بجانب بعضهما البعض على الرصيف متجهان الى المنزل الذي لم يبقى الوصول إليه سوى أمتار قليلة..

****

اللقاء بعد غياب خمس سنوات

وصل خليل الى المنزل ووقف لبرهة أمام الباب، سليم كان قد جلس على أحد الكراسي الموضوعة على أرصفة الطريق العام ينتظره، المنزل كان ظاهريا أنيق وبسيط، ذات طابقين، ومساحة متوسطة، بجانب الباب كانت هناك شجرة تدعى الرودودندرون، كبيرة وجميلة، كانت تزين المكان بأغصانها المرفوعة، الباهية، وأزهارها الملونة المريحة. دق دقة واحدة ثم أنزل يده وبقي ينتظر حتى يفتح له الباب، لم يفتح، ثم كرر ذلك مرة أخرى وبصوت أعلى، وإذ بدقات أقدام يسمعها بعد لحظات تتقدم، في حين فتح الباب ببطئ، فيرى جدته الطاعنة في السن التي كانت تبلغ من العمر سبعة وسبعين سنة، قصيرة القامة، بطيئة الحركة، نحيفة، تعاني من أمراض في الصدر، هندامها بسيط، كما هو الحال مع البقية، وعلى عينيها نظارات بيضاء تساعدها على الرؤية أكثر، تظهر رموز لا أدري ما يقصد بها على خديها، وجهها مجعد، شعرها أبيض

من الشيب، عليه منديل قماشي أحمر، مزخرف شكلا، ينظر إليها في سرور:

– السلام عليكم، كيف حالك؟

نظرت في وجهه جيدا، كان بصرها ضعيف لم تتعرف عليه خلال النظرات الأولى حتى اقترب إليها أكثر، ثم ردت عليه وقالت:

– لا تقل لي أنه أنت!

– من؟

– نعم إنه أنت، خليل

–نعم جدتي إنه أنا

–كبرت يا ولد تعال لقد اشتقت لك كثيرا

فاحتضنها بشدة لثواني عدة.. ثم قبل جبينها قبلتين متتاليتين، وهما يدخلان المنزل:

– جدتي أين هيلينا؟

– لقد ذهبت الى الدكان ستأتي يا ولدي، انتظرني هنا سأحضر لك شيئا تشربه..

جلس على الأريكة وهو ينظر ويتأمل في ديكور المنزل والى الجدران البيضاء، بما فيها ألواح مرسومة وكوادر، كان الداخل نظيف ومرتب، يحتوي على عدة مقاعد موضوعة داخل مائدة متوسطة خشبية جميلة، كانت الأرضية مفروشة بالأخضر، ثلاثة أرائك كانت موضوعة كزاوية قائمة، بجانب بعضها البعض، في وسط الفناء المتسع، على محيط الفناء كان هناك ثلاث غرف ومطبخ، في الأسفل، على الناحية اليمنى من الدخول، أما على الناحية الأخرى كان هناك درج مزخرف للصعود الى الطابق الثاني وحمام. وها هو ذا صامت يتذكر الأيام الماضية التي قضاها مع والديه في المنزل وهو صغير، كان قلبه يخفق كلما عاينهما، لم يتحمل الجلوس فنهض ذاهبا الى غرفته القديمة، التي كان ينام فيها، يفتح بابها، يدخل فيرى كل شيء نظيف، منحط في مكانه، سريره وفراشه معدل على الأخير، الطاولة ممسوحة ومغطاة بالقماش، كذلك الخزانة، كان المكان هادئ وفارغ، يظهر وكأنه بحاجة الى شخص يستقر فيه،

وبعد دقائق قليلة جلبت له جدته الشاي، فرأته واقف داخل غرفته فقالت:

– ماذا هل اشتقت لغرفتك؟ لقد بقيت فارغة منذ أن غادرت المنزل، أختك من حين لآخر تدخل فتنظفها وتعقمها.. هيا تعال واجلس، أشرب الشاي، وقل لي أين كنت كل هذه المدة؟ ذهبت دون أن تودعنا؟ لقد بحثنا عنك مرارا وتكرارا دون نتيجة

– كنت في الجوار يا جدتي لم أغادر المدينة، لقد مكثت فترة قصيرة مع أحد الأصدقاء، وعندما كسبت مالا انتقلت الى منزل آخر استأجرته وعشت فيه سنين غيابي عنكما، كنت قد قررت عدة مرات أن آتي إليكما وأزوركما، لكن نفسي غوتني وقالت لي أين أنت ذاهب، وأنت بهذه الحالة تائه وحائر، لا أكذب عليك يا جدتي كنت منحرفا وغافلا، الحمد لله رجعت الى الطريق، أنا الآن قد بدأت أعمل في إحدى المقاهي وكل شيء على ما يرام، والفضل يعود لصديق هو من سهل لي

الطريق إليكما، لقد اشتقت لكما، سأكون دائما معكما من اليوم فصاعدا

– وهي تناوله كأس الشاي، ونحن أيضا اشتقنا لك، لقد كبرت يا ولدي، لو تعلم، لقد مر وقت عصيب وأنت غائب، أختك بكت وتألمت كثيرا منذ أن توفي والديك، وزد، غيابك أحدث فيها ألم داخلي مؤلم، ولكن حمدا لله هي الآن ليست كما من قبل، لقد اجتازت مرحلة الضغط، حتى إنها تعبت ودرست، كما أنها نجحت في الباكالوريا العام الماضي وهي الآن تتحضر للدراسة في الجامعة، هناك صديقتها تسكن بجوارنا غالبا ما تقف بجانبها وتساعدها، فلا تقلق هي بخير الآن

– خليل يشعر بالندم وبصوت عذب يرد، سامحيني يا جدتي لقد مررتما بوقت عصيب بسببي، أعدكما أنني لن أغيب عنكما من الآن، سأساعدكما في كل شيء، لست مريضة صحيح؟

– الحمد لله أنا بخير، مرات أعاني من ألم وضيق أنت تعرف حالنا نحن كبار السن. ثم ابتسمت في آخر كلامها..

وإذا بالباب يدق، ببطء، فارتعد خليل وتحرك من مكانه عند سماع الصوت:

– أعتقد أنها أختي

وهو ينهض من الأريكة، فتوقفه:

– اجلس أنا من سأفتح الباب

بقي جالسا حتى فتحت الباب فوجدتها هيلينا أخته الجميلة، فدخلت:

– أتمنى ألا أكون أطلت عليك؟ آه أنا مرهقة

فإذا به ينظر إليها عن بعد مسافة قليلة وقد ظهرت ملامح الحزن على وجهه، قلبه ازداد نبضا، وضميره يأنبه من الغياب، أخته أصبحت لا تتجاوز الواحد والعشرون سنة من العمر، الفتاة المتحجبة والمتدينة صاحبة الخلق الرفيع، قلبها نظيف ورقيق، لو شاهدتها لرأيتها مرحة، بشوشة الوجه، شعرها مغطى بخمارها الأسود، شامية الأصل. حينما دخلت وهي تحمل المستلزمات المنزلية نادها:

– هيلينا.. مرحبا بك

التفتت على يسارها ونظرت إليه نظرة حادة ثاقبة وهي صامتة أخذت تنظر أيضا الى جدتها التي أغلقت الباب للتو، كانت قد عرفته من النظرة الأولى، في حين ردت عليه بكلمات جافة:

– مرحبا

– كيف حالك.. هل أنت بخير؟

– بفضل الله أنا بخير، ولما عدت أنت الآن؟

– يجيبها، لقد عدت لأجلكما يا أختي

– وهي تعاتبه، اذهب من أين جئت سنتدبر أمرنا كما جرى الحال

أضافت جدتها:

– ما بك يا هيلينا، هذا أخاك عاد إلينا لا تفعلي له هكذا

فتحطمت فجأة بالبكاء وقالت لها:

– لو كان أخي لما تركنا وحدنا نعاني ونتألم، وأنت تعرفين ما مررنا به جيدا

لحظتها وضعت الأغراض على الأرض وصعدت مباشرة الى الطابق الثاني حيث غرفتها والدموع تنهمر من عينيها، أغلقت

باب غرفتها وهي تبكي وتبكي بشدة متذكرة الأيام الماضية التي قاست فيها، كان قد أصابها حنين قاتل لفراق والديها وغياب أخوها بعد أن رأته فجأة في الدار، وفي ذلك الحين لحق بها الى الغرفة، أراد الدخول فوجده مغلق، سمع بكاءها الخافت بصوت رقيق من وراء الباب، وإذا بالحزن يملئ وجهه بالكامل، ودموعه تنزل من عيونه، كحبات الأرز، وهو مستلقي على الأرض وظهره على الباب:

– هيلينا أعرف أنك تألمت بما فيه الكفاية، وأنك عانيت الكثير لحظة غيابي وبحثتي عني ولم تجديني، أرجوك فلتسامحيني لقد عانيت الكثير أنا أيضا، مررت بأوقات عصيبة والله شاهد على ما أقول، لقد كنت أتذكركما من حين لآخر، خاصة عند نومي وعندما يحين وقت أ كلي، كنت أتذكرك دوما، أتذكرين حينما كنا صغار وكنت تلعبين معي القطة العمياء؟! (لعبة يتم فيها غلق العينين ومحاولة الإمساك بالآخرين) كم من مرة اشتقت إليكما! للأسف لقد كنت أجدب وجاهل، لتعلمي يا هيلينا إنني أصبحت إنسان طيب وتائب الى الله

سأكون دائما معكما، لا أريد أن أغيب عنكما مرة أخرى، أتمنى أن تسامحيني على خطئي

ظلت صامتة وهي تسمع ما يقول في الخفاء من وراء الباب، فيردف وهو يمسح دموعه:

– هيا افتحي الباب لا تحرمين من رؤيتك..

بعد لحظات من إكمال كلامه تفتح الباب فينهض مباشرة، ينظر الى وجهها فيجد وجهها قد احمر وأصبح كئيب، وإذا بها تحتضنه:

– أجدب حقا أنت

– اشتقت لك أختي العزيزة

– لما تركتنا كل هذه المدة؟

– أعدك يا أختي لن أتركك من الآن فصاعدا وطول ما أنا على قيد الحياة فلن تتألمي أبدا

تركا بعضهما البعض.. ثم قالت:

– منذ متى وصلت الى المنزل؟ أنت بخير حقا؟

– منذ عدة دقائق.. الحمد لله أنا بخير

– تعال لننزل الى جدتي هي تنتظرنا، سأعمل لك العشاء خصيصا لك اليوم أخي، وستحدثني عن كل ما مررت به.

فابتسم خليل وقال لها أمرك أيتها الأميرة ولكن لست وحدي هناك من جاء معي هو ينتظرني في الخارج..

– وهي في حيرة، ومن هذا الشخص؟!

– إنه سليم هو من نصحني وأرشدني وقادني إليكما

– جميل أنك سمعت كلامه

– هيا اذهبي حضري العشاء لقد أطلت عليه، إنه رجل طيب وصديق حاذق

وبينما هما ينزلان الدرج..

– حسنا سأعود يا أختي.

وعندما خرج من المنزل سعيدا ذهب مباشرة ينادي على صديقه الذي كان ينتظره في الرصيف، المنزل كان لا يبعد إلا أمتار قليلة عنه، فوجده جالس يتأمل في الطبيعة وما فيها من أشجار طويلة وزهور رشيقة، ومباني عالية مزخرفة، كانت حركة الناس قد قلت في المساء، وكذلك سير السيارات

والشاحنات، والشمس قد أوشكت أن تختفي من وراء الجبال الكبيرة، فنادى عليه وهو مسرور فرح، وكأن شيء لم يكن ولم يحدث:

– أخي.. آسف لقد أطلت عليك، الظاهر أنك متعب وجائع

– لا بأس عزيزي المهم أنك عدت لأهلك.. كيف جرى الحال؟

– بالرضى الحمد لله

– الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

– هيا نذهب للمنزل

سليم ضاحكا:

– حقيقة أنا خجل لقد وضعتني في موقف صعب!

– لا تقل هذا يا أخي، أنت تستحق كل الخير

– شكرا لك هذا من لطفك

– هيا بنا

– هيا

وبعد دقائق رجعا الصديقين الى المنزل، وعند دخولهما تذكر سليم شيئا فقال:

– خليل.. صلاة العصر فاتتنا..

– حسنا كما تشاء

وفجأة أذن المؤذن لصلاة المغرب وها هما يتجهان مباشرة لغرفته القديمة.. كانت الجدة وهيلينا وقتها في المطبخ يحضران العشاء، إذ نزع الصديقين حذاءهما وذهب كل واحد منهما على حدة الى الحمام ليغتسل ويتوضأ، وعندما أكملا ذلك صليا معا وبقيا دقائق وهما جالسين على ركبتيهما يدعوان الله ويشكرانه على تسهيل طريقهما وأمورهما.. وها هي هيلينا تأتي الى الغرفة فتجدهما على ذلك الحال، فترجع الى المطبخ.. كانت قد اندهشت من أخيها الذي أصبح رجلا تائبا يصلي، يسير على الطريق الصحيح، المذنب الذي تغير فجأة، وبعد مرور لحظات نهض الاثنان من مكانهما، ثم قال خليل:

– هيا تعال لنذهب للعشاء أنا جائع.. وأنت!

– قليلا

في حين خرجا من الغرفة الى المائدة التي كانت في الفناء ممتلئة من كل الأطباق الشهية، كان بجانبها أربع مقاعد، من كل ناحية مقعد، جلس خليل وهو قريب من سليم، في وسط المائدة كان يوجد طبق به أرغفة من الخبز، وأمام كل مقعد صحن فارغ، على يمين خليل كانت توجد سلطة الخضار، وعلى يمين رفيقه كانت توجد الفاكهة وشراب أحمر، حلو المذاق، وها هي الجدة تخرج من المطبخ وعلى يديها صحن به اللحم الملفوف تتبعها هيلينا تحمل مناديل لتنظيف الأيدي، وعندما وصلت وضعت الصحن ونظرت الى سليم قائلة:

– أهلا وسهلا بك في منزلنا يا ولدي

بأدب رد عليها:

– مرحبا جدتي، أطال الله في عمرك، أنا بخير وأنت كيف حال صحتك؟

– وهي تجلس على مقعدها، بخير نحمد الله

وإذ بهيلينا تصل الى مقعدها فتضيف:

– أهلا أخي.. مرحبا

– شكرا أختي، أتمنى أن تكوني بخير

– الحمد لله بخير

أضاف خليل:

– ماذا صنعت يا أختي؟

– تجيبه وهي تجلس، كل ما تحب، هذا 'حساء البزلاء كما ترى، وهذه سلطة البطاطس وهذه الرنجة التي كنت تحبها وأنت صغير، مشارة لمكان الجدة، وهذا لحم ملفوف صنعته جدتي بيديها'

– هيا على بركة الله، أكيد أنتما جائعان، كلوا يا أولاد

– خليل وهو يمسك رغيف الخبز، جميل، نعم أنا جائع كثيرا

– وهو يمسك الملعقة، بسم الله

– هيلينا وهي تقرب طبق الخبز باتجاههما، بسم الله

الجدة تمسك الملعقة وتنظر لسليم:

– إذا أنت من جلبته الى المنزل ولولاك لما كان هنا معنا اليوم!

– لا وحده الله. لقد فعلت ما يجب هذا ما في الأمر

أضاف خليل وهو يأكل:

– نعم بالضبط

– هيلينا وهي تمسك قطعة من الخبز، شكرا جزيلا لك، لقد فعلت ما يجب

– الشكر لله

– الجدة، بالطبع يا ولدي الطيب

يشير لأخته ويقول:

– مبارك لك أختاه على نجاحك في الباكالوريا

– تبتسم وهي تنظر لجدتها، شكرا لك أخي

– سليم يرفع رأسه، انتصارات أخرى إن شاء الله

وهي تأكل:

– إن شاء الله

– هي الآن تتحضر للدخول الى الجامعة

وهو يشرب:

– كل ما تحتاجينه يا أختي سيكون على حسابي..

– ترد بلطف، حفظك الله أخي

ينظر لرفيقه ويردف:

– ألم تقل لي بأنك أيضا جئت من روتردام قصد التسجيل والدراسة هنا في أمستردام

– أجل معك حق

– جميل أي تخصص؟

– يجيبها، العلوم الإنسانية

بأدب:

– جيد.. أما أنا الأدب الإنكليزي

– يرد وهو يشرب، هذا رائع وفقك الله

الجدة وهي تقدم كل واحد منهما حبة من التفاح الأحمر:

– هيلينا ابنتي قالت لي أنها تريد أن تصبح كاتبة كبيرة تخدم الناس

– هذا جميل، إن شاء الله أختي لما لا!

– إن شاء الله، في الحقيقة أنا أريد أن أصبح معلم يعلم الأطفال الصغار ويرشدهم الى فعل الصالحات، كما أنه توجد لدي هواية، وربما موهبة...!

خليل يقطع كلامه:

– وماهي؟ أنت لم تحكي لي مثل هذه الأمور

– أنا أجيد الرسم مذ كنت صغير، أستطيع رسم أشياء عميقة بالفرشاة، لدي ألواح عدة تركتها في المنزل

هيلينا تندهش:

– هذا جميل

– وهو يبستم في وجهه، الآن بدأت أعرفك جيدا

– وفقك الله

ينظر لجدته ويقول:

– مؤسف للآن لم أكتشف موهبتي مثل جدتي!

– بنظرة ثاقبة من وراء النظارات تجيبه، ومن قال لك أنني لا أملك موهبة، أنا أجيد التربية أنظر لأختك كيف هي الآن، خلوقة وراقية، مطيعة ومتأدبة

– خجلت ثم قالت، جزاك الله خيرا

وهو يبتسم:

– نعم.. لقد اكتشفتها وأنا صغير، طبعا بفضل والدي. آسف جدا، رحمهما الله

شعرا بالحزن لحظتها لكن تقبلا الأمر، وإذ بالجدة توضح:

– وكأنك تقول أن الإنسان يكتشف موهبته وهو صغير

– بالطبع عندما نوفر للصغير كل ما يحتاجه ونغلق عليه الأبواب لفترات مقسمة فإنه يكتشف موهبته، وهنا يحدث الإبداع

– هيلينا تدعمه، معك حق حتى أنا مذ كنت صغيرة وأنا أقرأ بشغف الكتب الهادفة، فاكتسبت أسلوب وحافز جعلني أدخل عالم الكتابة، وإليكم ماذا كتبت صباحا.. نصا بعنوان النسيان كنت سأقدمه لصديقتي حتى أخفف قليلا من معاناتها.

' عزيزتي إن الله سبحانه وتعالى أنعمنا بنعمة العقل وميزنا بها عن باقي الكائنات، ميزنا بالفهم والإدراك، الوعي، وكذلك الحفظ والتذكر.. كما أنعمنا أيضا بنعمة النسيان حتى ننسى هموم الدنيا وملذاتها وآلامها، وفعل الخير الذي قد يقدمه كل إنسان! ومن جهة أخرى يمكن للنسيان أن يكون فعل من الشيطان، حتى ينسينا أنفسنا، يوم الفصل، الموت.. ويدفعنا نحو المغريات والملذات، ولكن اعلمي أن الذي تكون صلته

بالله متواصلة لا داعي لأن يندم، فدعاء واحد خالص لرب العرش مستجاب، فنتذكر كل ما نسيناه وحفظناه وما نريد تذكره، بفضله وكرمه، الله قريب أ كثر من استجابته لنا، سيحقق لنا كل دعاء خالص ولا يبالي. وإذا أردنا نسيان شخص نحبه أو موقف ما أو شيء ما فهذا سنجده صعب في الأول يا صديقتي، لأن قيمة الحب تفوق قيمة النسيان فينا، أو قيمة الألم فينا تفوق قيمة النسيان، ولكن هذا لا يمنعنا على النسيان، فنستطيع أن ننسى الدنيا بكاملها وليس إنسان فقط، نعم هناك عراقيل وأخطاء وابتلاءات نفعلها في حياتنا ونلتقي بها مع الأيام، غير أن بقربنا الى الله وثقتنا به سنجتاز كل شيء.. نعم قد ينسى العقل، لكن القلب لا ينسى، وحتى ينسى القلب علينا ببديل، هذا البديل هو من سينسينا هذا القديم، ولكن كيف؟ بالصبر والحكمة يا لينا، وكيف سنكتسب هذا؟ باللجوء الى الله جل جلاله، أن ندعوه ونتقرب إليه، سيستجيب لنا ما دمنا نحن بحاجة إليه.. يجب علينا أن نكون جديين معه، مخلصين اليه، صادقين معه، قد لا يطول الأمر في

نسيان من نحب، وقد لا ننساه لأننا لا زلنا نحبه.. وقد ننساه لأننا أصبحنا لا نحبه يعني لا نكرهه، وإنما لا نحبه وكفى.. قد تقولين متى نصبح لا نحب؟ متى تحدث نقطة التحول؟ أقول لك حين يتقبل القلب ويختار،حين يحتل حبنا لله حب هذا الشيء، يعني لا ينبغي أن نتعلق بأحد سوى الله، إذا ملئت قلوبنا بحبنا له بالكاد سننساه.. سنصبح نتذكر الله فقط ولن ننساه أبدا، نستشعره ونطيعه ونعبده، ومن جهة أخرى نكون قد تخلصنا من حبنا للإنسان وتعلقنا به.. بعد الصبر والحكمة التي جعلتنا نميز بين رب الكون والكائن الضعيف، هنا تحدث نقطة التحول، حين ندرك أن الإنسان لا يدوم بل الله الحي الذي لا يموت، يجب أن نتعلق به لا شك في هذا، بالاستقامة والقرب إليه'

– هذا رائع، جميل جدا، أختي أصبحت تجيد الكتابة، لتزييني مائدتنا كل يوم بكلماتك الصادقة هذه

– الجدة تمازحه، هيهه.. ألم أقل لك أنه لدي موهبة

سليم يرد بذكاء:

– ومع هذا لا زالت تملك قدرة أكبر حتى تكتب أكبر بكثير

– أصبت، لازلت أطمح في الكتابة وبقوة

– يرد عليها، كلنا ينبغي أن يطمح!

أضافت الجدة:

– وفقكم الله يا أولاد..

وفجأة يشعر خليل بضيق وعدم الراحة في داخله، فينزل رأسه نحو المائدة وها هي هيلينا تنهض من مقعدها:

– أخي ماذا بك؟

– أخي ما بك؟

– بني

يصمت قليلا ثم يتكلم بصوت خافت:

– أنا أشعر بالضيق والدوار

– ينهض ويمسك به، هيا قم يا عزيزي

لا يستجيب، يساعده على النهوض، وأخته تشده من كتفه، للوقوف، ثم يضعانه على الأريكة، مستلقيا، كان وجهه قد

تغير لونه بغتة، وصار متعبا ومرهق، يعيد التحدث معه وهو يقترب منه أكثر:

– أخي بماذا تشعر الآن؟ تكلم

– يتكلم ويهمس في أذنه، ألم في البطن..

ينظر الى بطنه فيضع يده ويبدأ يمسد وأخته تقول:

– علينا أخذه الى المستشفى حالا

– الجدة، نعم هيا احملاه

يحمله سليم على ذراعيه ثم يخرج من المنزل ويتوقف على الطريق العام فيطلب المساعدة من العابرين، وماهي إلا دقائق قليلة تتوقف سيارة أجرة، فيضعه من الخلف والسائق يساعده، وإذ بأخته وجدته يلحقانهما فيركبا معهم، ثم ينطلق السائق بسرعة متجها الى المستشفى العام، في ذلك الحين كانوا قد تركوا المائدة ممتلئة بخيراتها، الموقف كان مؤثر حقا بعد أن كانوا سعداء يتبادلون الأدوار، خليل وقتها ذهب المسكين دون حذاء، وكذلك رفيقه، ذهبوا مسرعين دون وعي وتفكير، لقد كان هم كل واحد إيصاله في أقرب وقت الى المستشفى. ولكن

الغريب في الأمر أنه كان لا بأس به يأكل الطعام ويتحدث، من الذي أثر عليه وجعله على تلك الحالة!؟ (تابع..)

****

الإصابة البليغة

وصلت السيارة الى المستشفى العام في نحو الساعة الثامنة والنصف ليلا، نزل الجميع منها، ثم حمل رفيقه بمساعدة السائق، بعدها شكره وأعط له حقه، كان قد لايزال يشعر بالدوار والضعف، وعندما دخلوا من الباب الكبير بدأ ينادي بصوت عال:

– حالة حرجة.. أين الطبيب، نادوا الطبيب..

كان وقتها شبه فارغ، بعض الناس كانوا جالسين هناك على المقاعد ينتظرون شفاء مرضاهم، المستشفى كان كبير الشكل، نظيف ومعقم، جدرانه بيضاء، يحتوي على العديد من الغرف التي بها المستلزمات الخاصة بالمريض، كل غرفة بدورها، لحظتها أشارت إحدى الممرضات لسليم حتى يأخذه ويضعه داخل تلك الغرفة الخاصة بالفحص، في حين أخذه ووضعه على السرير، وظلوا معه الى أن جاء الطبيب بلباسه الأبيض وسماعته السوداء التي كانت موضوعة على عنقه، كان رجل في نحو الخمسين من العمر، بدين، حسن القامة، عينيه بني داكن،

أحمر الشعر، رجل وديع وناضج، ذكي، حيوي مفعم بالحياة، على خديه لحية حمراء خفيفة، حياهم ثم جلس على كرسيه وأخذ يفحصه ويتحدث معه، محاولا كشف ما به، وبعد لحظات نظر الى بطنه وقال:

– كيف أصبح هكذا؟

حكت له هيلينا ما جرى.. فرد عليهم:

– يجب علينا أخذه للتشخيص مباشرة، وإخضاعه لمجموعة من الفحوصات الطبية.. انتظروا في الخارج؟

– أجاب، نعم حضرة الطبيب

نظر الجميع الى خليل المتعب والحزن قد تشكل في وجوههم ثم خرجوا ينتظرون في الرواق الذي كان به عدة مقاعد مرتبة ومشدودة ببعضها البعض، كانت هيلينا وجدتها قد جلسوا بجانب بعض، بينما سليم بقي واقفا على حائط الغرفة التي كان فيها صديقه، قلق ينتظر ما سيقوله الطبيب.. الذي خرج للتو من الغرفة وناد اثنان من ممرضيه، كانت امرأة ورجل، دخلوا الى الغرفة فأخرجوه منها، وهو على السرير المتحرك،

نحو عمليات الفحص، بعدها تبعهم الطبيب، وبعد مرور دقائق والأقارب جالسين على ذلك الحال ينتظرون النتيجة. وإذا بالممرضة التي أخذت المريض معهم تأتي مارة على الرواق، لا أدري الى أي مكان كانت ذاهبة، فنادى عليها ثم قال لها:

– أختي.. هل هو بخير؟

– في الوقت الحالي لا أستطيع إجابتك؟ لكن عملية الفحص ستثبت ما به

– وهل ستطول عملية الفحص؟

– تجيبه، نعم قليلا اذهب وارتاح سنهتم به قدر المستطاع وأي تطور سأخبركم

– شكرا أختي

– العفو

في حين ذهب إليهما. كانوا قلقين أيضا، صامتين وحائرين، فكلمهما:

– لقد قالت إن الفحص سيطول قليلا، سنهتم به قدر المستطاع. يمكنكم الرجوع الى المنزل حتى ترتاحوا وأنا سأبقى هنا

– هيلينا تخاطب جدتها، ماذا نفعل؟

– لنعد الى البيت إنني لم أشرب دوائي حتى الآن، لقد تركناه في جو معكر بسبب تسرعنا، هيا قبل أن يتأخر الوقت، لا تقلقي بنيتي إن شاء الله سيرتاح ويشفى

– إن شاء الله، حسنا لنذهب،

وها هو ذا يوصلهما الى باب المستشفى ثم ينتظر حتى يركبا في السيارة، بعدها يعود الى الداخل متجها الى الحمام فيجد إحدى الأحذية البسيطة فيلبسها ويدخل، يغتسل ويتوضأ، وعندما أكمل ذلك اتجه الى أحد الأماكن الخالية، النظيفة هناك في المستشفى وصلى صلاته، وحينما أكمل سمع في وقت متأخر صوت صادر قريب من المكان الذي كان فيه، فأسرع ينظر، فإذ به يجد رجل كبير لا يتجاوز سن الأربعين يصرخ في وجه رجل أقل منه، كان يتراوح ما بين الثلاثة والثلاثين الى

الخامسة والثلاثين من العمر، فبقي ينظر إليهما، كان الرجل الكبير يتحدث مع الرجل الصغير وهو يرفع من صوته:

– ما الذي أتى بك الى هنا، ألم أقل لك أن تبقى في المنزل؟ كلب، لازلت تسمع لأنسابك وامرأتك حتى الآن!

بقي الرجل الصغير صامت دون أن يتفوه أو ينطق بكلمة، كان هناك بعض الأشخاص ينظرون ويلاحظون ما يحدث، لم يتدخل أحد في تلك اللحظات، وبعد دقائق قليلة غادر الرجل الكبير من المكان وبقي الرجل الأصغر جالس ينتظر. أحس سليم بالذل والإهانة والاستعباد في مكان الرجل الصغير، فقرر أن يذهب اليه ويعرف ما وراء هذا الحديث، لقد كان محتارا وقتها، حيث ظن أن الرجل الكبير كان أباه، وعندما ذهب الى الرجل الصغير الذي كان يبدو فقيرا بلباسه، نحيف الجسم، قصير الطول، بشرته سمراء، وشعره أسود، كان لا يبدو أنه ينتمي الى أمستردام حسب الحالة التي كان فيها ومن شكله، وحين اقترب منه وجد وجهه قد تغير والحزن قد جعله كئيبا مخذولا:

– مرحبا أخي.. كيف حالك؟

– بخير الحمد لله

أدرك أنه مسلم فأردف قائلا:

– هل يمكنني سؤالك، أنا محتار حقيقة؟

– نعم تفضل

– هل هذا أبوك؟

يرد عليه بصوت جاف:

– لا بل أخي الكبير

– ولكن الأخوة ليست هكذا والناس تسمع، أنتم كبار!

– لا نحن صغار في عيون الكبار

– ماذا تقصد!؟

يجيبه دون أن يعي ما يقول!

– نحن المهانون الذين ذلونا وقاموا بتقليل شأننا أمام الغير، الكارثة أنها لم تأتي من عند الغريب، بل من عند أقرب الناس

– يا عزيزي حقيقة لا يوجد كبير، كلنا سواسية، وحده الله أكبر في أنفسنا

– وهل هؤلاء يعرفون الأكبر!

سليم وقد تولد الغيظ في قلبه:

– كان ينبغي عليك أن ترده الى الصواب **بالحسنى** بدل من أن تبقى على ذلك النحو، ولكن لما قال لك ذلك؟

– لتعلم، زوجتي هي الآن في غرفة النساء الخاصة بالولادة وهي على وشك أن تلد ولدا، عندما شعرت بأن وقتها قد حان جلبتها الى المستشفى لأني خفت وقلقت عليها من أن يحدث لها شيء وأصبح أنا السبب في ذلك

– إن شاء الله توفق في ولادتها، هذا حقك وما دخله إذا في أمورك؟

– هذا أخي الكبير هو **المتكلف** بأمور المنزل وأمورنا، أي شيء يحدث يقوم بتعديله وقضائه، نحن ما علينا سوى أن نأتيه بالمال ونضعه في يديه

– غريب. وحتى في امرأتك! هذا أمر خاص لا يجب الدخول فيه، هذه زوجتك وامرأتك وأنت حر فيها لا دخل له إلا للضرورة

يوضح:

– كما تعلم هذه عاداتنا لقد مازلنا في العصر الجاهلي، وما عساي أفعل، هذا أخي!

– لكن ليس بهذه الطريقة، ما هو أصلك؟

– أبي جزائري توفي منذ سبع سنوات، وأمي من أمستردام ونحن نعيش الآن في أوترخت وأنت؟

– رحمه الله، هذا جميل، أنا أيضا أبي جزائري، وأمي أصلها من روتردام

– قدر جميل

– نعم أخي، ماذا كان اسمك؟

– يوناس

– أما أنا اسمي سليم، قبل أن أتركك سأنصحك بشيء وإن شاء الله تتقبل نصيحتي كأخ

يرد عليه:

– حسنا أخي

– اسمعني، أنت تعلم أن الرزاق هو الله، لهذا إن كان أخاك هو المسيطر والمهيمن على المنزل فهذا أمر غير طبيعي، هو ليس أباك هو أخاك، والأخ في أمور فقط، لهذا لتدرك أن لكل إنسان أشياءه الخاصة، وهذه الأشياء لا يحق له الدخول فيها لأنها خاصة، فامرأتك أنت المسؤول عنها وليس هو، ربما هو لا يعقل هذا، لكن أنت كنت على صواب، ولا أعرف ما إن كنت من قبل على صواب أم لا! على أي حال ما أود قوله إياك والخضوع والإهانة مهما كان الطرف، قدم طرحا قد يغير جبلا، واستعن بالله لقد خلقك إنسان وكرمك وميزك عن سائر الكائنات فلا تذل نفسك أو تهينها إلا لوجهه الكريم .. إذا شعرت أنك مستعبد من طرف أحدهم فلا ترضى بذلك أبدا وثق في الله فإنه لن يضيعك ما دمت تشعر وتحس وتحافظ على قيمتك وكفاءتك وكرامتك، أتسمعني؟

فجأة تسيل من عين يوناس دمعة خفيفة صغيرة ساخنة:

– نعم أنا منصت لك

– يضغط عليه وكأنه يريد إخراج شيء من داخله، حسنا لتبكي أنت رجل والرجل لا يبكي إلا إذا شعر بالقهر

وها هو ينزل رأسه نحو الأرض ويبدأ بالبكاء، وإذ به يحتضنه بشدة:

– لينقي قلبك الله، أسأل الله أن يخفف عنك ويبعدك عن الظالمين فلا تيأس، الآن انتظر موعد ولادة امرأتك، أنا أشعر بأن الله سيرزقك بولد جريء لا يخشى المصائب..

– وهو يبتسم بوجهه الذي قد احمر من البكاء، إن شاء الله

– يردف، وسيجلس على بطنك ويدغدغك بيديه الصغيرتين فلا تتأثر، فيقول لك أبي.. أبي.. أنت شجاع لما لا تتأثر؟ فتضحك بعدها وتجيبه قائلا ومن الذي لا يتأثر غير الله القوي، نحن نمثل فقط!

– يالك من حاذق لقد جعلتني أضحك بعدما كنت أبكي..

– على كل حال، أتمنى لك السداد وأن يصلح الله أمورك وأن يجعلك حكيما تميز بين ما هو مقنع وغير مقنع

يوناس وهو يمسح وجهه من الدموع:

– شكرا جزيلا لقد وقفت سندا لي اليوم، أنت رجل صالح أتمنى من الله أن يرزقك الذرية الصالحة، آه نسيت، لما أنت هنا؟ هل تنتظر أحدهم؟

– نعم رفيقي هنا لا نعرف ما به، لقد كنا نأكل ونتحدث فجأة أصيب بالتعب وبألم في البطن!

– الشفاء العاجل إن شاء الله، ربما حدث له تسمم في الغذاء!

– حقيقة لا أدري عسى الله أن يغير الأحوال..

– إن شاء الله يا رب

– أتركك لتعتني بنفسك وامرأتك ومولودك الصغير

– حسنا وأنت أيضا

حينئذ غادره سليم وذهب يتفقد حالة خليل، كان المكان قد قل من الحركة، الجو بارد قليلا في الليل، النوافذ مغلقة والباب مفتوح، لاسيما أنه كان يلبس لباس ربيعي، خفيف، مما جعله يشعر بالبرد، كان غير متوقع أنها ستحدث معه كل هذه الأحداث، خاصة حادثة رفيقه التي بدأت تؤثر عليه، خاصة أنه بدأ يحبه بصدق، وبشعوره بالتآخي لحظة عزمه على

العشاء، إنه أول الأشخاص الذين أحبهم خلال رحلته. هذه هي الصداقة التي ولابد أن يطمح إليها كل إنسان، يجب على المرء أن يساعد أخاه وأن يرحمه وأن يحب حتى حشرة.

وبعد مرور حوالي ساعتين من الانتظار ومن التشخيص خرج الطبيب من إحدى غرف الفحص الطبي فوجده جالس على المقعد فنادى عليه:

– أنت أخ المريض؟

– لا أنا صديقه

لزم الطبيب الصمت ثم قال:

– اسمع ما أقوله لك، ولكن لا تقلق، في الحقيقة أثبتت الفحوصات والاختبارات أن المريض مصاب بسلطان المعدة ولقد تبين لنا أن الورم قد انتشر في المعدة وانتقل الى جدارها، وأنت تعلم أن هذا المرض غالبا لا يتم الكشف عنه إلا في مرحلة متأخرة، وهو الآن في مرحلة متقدمة، نحن أخذنا باقي المعلومات عنه وأخذنا الاحتياطات الواجبة حتى نخفف من حالته..

صدم سليم عند سماع الخبر، الذي لمس داخله وزعزع كيانه، لم يكن ينتظر هذا أبدا، حيث أنه شعر بالضعف، الهلع والخوف عندما قال له أنه انتشر في المعدة وعلى سطحها، وها هو ذا يمسك نفسه:

– هل هو بخير الآن؟ وما الحل حضرة الطبيب؟

– نعم بخير ولكن يجب علينا إجراء له عملية جراحية في أقرب وقت حتى نقوم باستئصال المعدة فالورم قد ينتشر في أعضاء أخرى

تلون وجهه واسود لأنه لم يجد ما يقوله، غير أنه بقي ثابتا ثم رد:

– وهل يعرف هذا؟

– لا لم نقل له بعد

– وهل يمكنني رؤيته الآن؟

– الأحسن ألا تقول له ذلك الآن، دعه ينام ويرتاح، غدا نطلعه بذلك

– نعم معك حق حضرة الطبيب، ما عساي أقول لك، دعنا ننتظر أهله ثم نقرر

– حسنا تمالك نفسك، ارتاح، الى الغد..

****

نتيجة الإصابة البليغة

ظل سليم يصارع نفسه داخل المستشفى كأنه المريض، دون أن ينام ساعتين متتاليتين رغم التعب والإرهاق الذي مر عليه منذ أن نزل رأس خليل على المائدة، كان قد نهض باكرا وخرج من إحدى الغرف الخاصة بالنوم، الموجودة في الطابق العلوي، بعد ذلك اغتسل وتوضأ ثم صلى صلاة الصبح، كالعادة، وعندما أكمل نزل الى الأسفل حيث صديقه في الطابق الأول، في قسم وحدة العناية المركزية، وحينما نزل أخذ كأسا من الماء وشربه، كانت توجد آلة موضوعة أمام الجدار خاصة بالماء العذب، قريبة من الدرج، وأخرى موضوعة أمام الباب الكبير تحتوي على مجموعة من المشروبات الخفيفة خاصة بالعمال والزائرين. وبعد أن نزل وجد الجدة وهيلينا قد دخلتا للتو ومعها صديقتها، مسرعين.. الصديقة كانت جارتها في السكن، تلك التي كتبت لها نصا خاصا بها، عنوانه: النسيان، الفتاة كانت طويلة القامة، جميلة الملبس، يظهر على وجهها أنها فتاة متواضعة ومثقفة، لكن فضولية نوعا ما. في تلك اللحظة كان

سليم قد رآهم عن بعد مسافة فتهيأ وثبت، وعندما وصلوا إليه قالت هيلينا مباشرة:

– السلام عليكم.. هل هو بخير؟

– وعليكم السلام، نعم قال الطبيب هذا..

– الحمد لله

أضافت لينا:

– الحمد لله

ثم تنظر لصديقتها وتقول لها هامسة:

– من هذا؟

– صديق أخي

يتابع في هدوء ووقار:

– ولكن هناك أمر أخبرني به الطبيب

– هيلينا ترتعد ويبدأ الخوف ينمو في داخلها، وما هو؟

– لقد قال لي أن الفحوصات أثبتت أنه مصاب بورم في المعدة

– ماذا.. وكيف هذا؟

الجدة تشعر بالقلق:

– يا إلهي

الصديقة تضع يدها على فمها وتبقى صامتة، ثم يكمل:

– لا تقلقوا رجاء.. المعني أولى الناس في أن يقلق ويخاف. وعندما قلت له ما الحل؟ قال لي يجب علينا إجراء له عملية جراحية فالورم قد انتشر في المعدة وانتقل على جدارها، حتى نستأصل المعدة بالكامل..

– تفقد رباطة جأشها، يا إلهي وهل خليل يعلم هذا؟

– لا لم نشأ قول له ذلك بعد..

أضافت الجدة:

– في النهاية سيعلم

– يجب علي أن أرى أخي، يا إلهي أن خائفة من أن يحصل له مكروه

– يخفف من حالاتها، لا تخافي.. إطمئني

– الجدة تكمل، هيا لنذهب.. أين الطبيب!

أكملا السير وهم في الرواق الى أن وصلوا الغرفة التي كان فيها وإذ بالممرضة والطبيب يخرجان منها فيلتقيان معهم:

– مرحبا دكتور.. كيف حاله؟

– أنت أخته صحيح!

– نعم أيها الطبيب

– هل علمتم بالأمر؟

– نعم لقد قال لنا سليم. ولكن وضح لنا أكثر لو سمحت

– حسنا حان الوقت ليعلم أخاك أيضا، هيا أدخلوا..

في حين دخلوا جميعا الغرفة فوجدوه مستلق على سرير الإنعاش، فرحب الجميع به ثم قالت هيلينا وهي تمسك يده:

– أخي كيف أصبحت؟

– لا بأس أنا بخير يا أختي العزيزة

رفيقه يقف فوق رأسه:

– إن شاء الله تكون بخير أتمنى لك الشفاء العاجل أخي

– إن شاء الله. لما لم تذهب الى العمل؟

– مستحيل أذهب وأتركك

الجدة تجلس بجانب رجله وتقول:

– بني بما تشعر؟ أنت بخير؟

– بخير الحمد لله جدتي

الصديقة جالسة بجانب باب الغرفة:

– طهور إن شاء الله

الطبيب والبقية كانوا قد ظلوا واقفين أمامه، وها هو يبدأ في كشف النتائج بهدوء:

– لقد قمنا بإجراء عدة فحوصات طبية مما جعلنا نتوصل أنك مصاب بسلطان المعدة، إن الورم تبين أنه في معدتك وقد انتشر على الجدار الخاص بها، لهذا لا تقلق، هناك حل..

– يبدأ قلبه يدق بسرعة مما جعله يشعر بالقلق والخوف، ورم! كيف هذا؟

– في الحقيقة غالبا لا يتفطن المريض لهذا المرض حتى تتطور الإصابة ويصبح في مرحلة متقدمة فتظهر عدة أعراض على المريض، والضعف والألم الذي شعرت به أمس واحد من تلك هذه الأعراض

يتلون وجهه فيحزن:

– ومنذ متى وأنا مصاب بهذا؟

– لا نعلم تماما غير أنه تبين أنه منذ سنوات وانتشاره هو أحد الأدلة

– يا إلهي ماذا فعلت، لقد كنت أشعر بمثل هذه الأشياء لكن ليس لهذه الدرجة

سليم يخفف عنه:

– تمالك نفسك أخي وثق في الله

– الطبيب يردف، ولهذا الحل الذي يجب أن نفعله إجراء لك عملية جراحية، حيث يتم فيها استئصال المعدة بالكامل وبهذا نكون قد استأصلنا الورم حتى لا ينتشر في الأعضاء الأخرى كالطحال والبنكرياس. وهناك علاجات أخرى سنفعلها بعد العملية

أضافت هيلينا:

– إن شاء الله.. يارب

– يلزم الصمت قليلا ثم نظر اليه بعينين بريئتين، وما هي نسبة النجاح، لتصارحني دكتور؟!

– يصارحه، الظاهر أنك من الفئة التي تدخن وهذه من مسببات المرض، كما أنك كنت تتعاطى الخمر والمخدرات من قبل، صحيح!

بوجه حزين يرد بصدق وهو ينظر الى أخته وجدته:

– أجل. آسف، آسف جدا، يا إلهي لقد دمرت نفسي بنفسي

– بود، لا تحزن يا أخي هون عليك واستغفر ربك

الجدة تضيف:

– بني عزيزي كن جريء

– يكمل كلامه، لهذا نسبة نجاح العملية ستكون خمسة وسبعون بالمئة، وسنفعل ما بوسعنا حتى تشفى

– يتحطم وينمو الذعر والقلق في داخله، ومتى ستكون العملية؟

– بعد ساعة هذا إن كنت مرتاح نفسيا

يصمت قليلا ثم يتشجع ويستعيد رباطة جأشه:

– حسنا دكتور، أنا موافق

– سليم يسانده ويلمسه على كتفه، أعلم أنك شجاع

هيلينا دمعتها على خدها تدعمه:

– أخي كن قوي من أجلي

– تلمس رجله، خليل بني ليكن الله معك

أضاف الطبيب:

– حسنا لنترك المريض يرتاح الى ما بعد التحضيرات

تخرج لينا أولا ثم يليها الطبيب والممرضة ثم الجدة وهيلينا وهاهو ذا يمسكه من يده، فيقول له:

– اجلس أخي لدي كلام أود قوله لك

– كانت أخته قد سمعت ذلك وهي خارجة من الغرفة، نعم صاحبي

– أخي ما عساي أقول لك، إني 'سجين قبري بدني' لك مني طلب، بفرضي أنني..

يلمس يده:

– لا.. لا تقل هذا، ستكون قوي مثل الأسد وتعود كما كنت

– بوقار، أخي هذه مسألة حياة وموت لهذا إذا قدر ما قدر فأوصيك بأهلي فأنا لا أملك صديقا عزيزا غيرك، أنت هو

الوحيد الذي أثق فيه، كن معهما يا أخي، قف بجانبهما، أرجوك، فإنني وعدتهما أمس فقط، بأنني سأكون معهما دائما! لهذا رجاء إذا جرى لي شيء فكن معهما

يرد عليه بحكمة وشجاعة:

– يقول الله تعالى (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) [المائدة: ٢] هل في نظرك ألا أعمل بهذه الآية الكريمة؟ لا تقلق بهذا الشأن، بالفعل سأكون بجانبهما، كن أنت قوي، وأتمنى أن نعود مثل ماكنا صديقين متماسكين

– إن شاء الله

– لأتركك ترتاح، الآن انزع الوسواس من عقلك، أصافحك بفكري

– أصافحك بذاتي

يخرج من الغرفة وهو يحجب الخوف من الفقد الذي تخلل داخله، وبينما هو في الرواق يمشي إذ يمر على هيلينا والجدة والصديقة:

– ماذا قال لك أخي؟

– لا شيء أختي سوى كلام رجال

– ماذا تقصد!

يوضح ويرد بمهارة:

– لا شيء سوى أنه قال لي بأنه يثق في وأنني صديقه العزيز، ثم شكرني وتصافحنا كالرجال

– حقا..! حسنا شكرا لك

– العفو لك.

وبعد مرور حوالي ساعة جاء الطبيب ومعه اثنان من طاقم التمريض لأخذه الى غرفة العمليات، كانوا قد تحضروا من أجل إجراء له العميلة الجراحية، كانت الساعة تشير وقتها الى التاسعة صباحا، وها هم يخرجونه وهو على السرير المتحرك، كانوا قد شاهدوه فذهبوا إليه، فقالت أخته:

– كن جريء

– بني. ليكن الله في عونك

يرد عليهما:

– إن شاء الله

وهم يمران به على الرواق إذا به ينظر الى سليم عن بعد مترين أو ثلاث، الذي كان واقف على الجدار، فيغمزه ويبتسم في وجهه كأنه ذاهب الى الحرب يكافح بحيلته، كان الرجل يبدو شجاعا، فيرد عليه الآخر بغمزة سريعة ثم يضع يده على فمه فيقبله قبلة حارة يعبر بها عن حبه له. كان الموقف مليء بالحب والرحمة والصفح، لو رأيته بأم عينك لقلت إنهما صاحبين مجنونين، ويختفي عن الأنظار.. فيدخل غرفة العمليات، كان أطباء التخدير قد دخلوا للغرفة، وكذلك الكادر الطبي الخاص بالجراحة، كان كل شيء محضر من قبل المشرفين عن العمل، وبعدما استقر الحال وأغلقت غرفة العمليات خرج سليم واستقر جالسا بجانب الباب الكبير الخاص بالمستشفى حتى يستنشق الهواء ويرتاح، كان الجو صباحي جميل وسعيد، بزقزقة العصافير وحركة الأشجار الخفيفة، وهدوء المكان. حيث ظل يفكر ويدعو الله في قرارة نفسه على أن يؤيده ويشفيه، كان جالس ويديه على خده، الكآبة تملأ وجهه،

ينتظر النتيجة بفارغ الصبر.. وها هو يأتي شاب يسوق معاق جالس على الكرسي المتحرك، كان الشاب عمره في نحو الثامنة عشر، أبيض البشرة، قصير القامة، بدين وعلى رأسه قبعة سوداء، عينيه زرقاوين، كان يبدو جميل بلباسه الأنيق ووجهه الأبيض، الناعم، لو شاهدته لظهر لك أنه شاب لا يفكر إلا قليلا، كان يتمتع بالجمال والأناقة، بينما الرجل المعاق كان يظهر متسخ بلباسه، وعلى فمه الريق وآثار الأكل، عمره لا يتجاوز الستين، أشيب الشعر، ذو لحية سوداء، كبيرة نوعا ما، عينيه زرقاوين أيضا وملامح وجهه تثير الشفقة، كان يبدو مجنون، يتكلم وهو يحرك رأسه هنا وهناك ولا يعي ما يقول. وإذا به يلاحظ دخولهما الى المستشفى فيراه على تلك الحالة، فشعر بالرقة اتجاهه وقد ازدادت الكآبة في وجهه حينما رأى الإشارات والحركات الغريبة التي كان يفعلها، ثم قال في نفسه:

– الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلا

ثم نهض وذهب يسلم على جبينه، بعدها رفع رأسه وأخذ ينظر الى الشاب، فحياه:

– مرحبا

– مرحبا

– يسأله، من يكون هذا؟

– أبي

– شفاه الله وعفاه

– ومن أنت؟

يجيبه ناصحا:

– أحد عابري السبيل الذي سيقول لك شيئا لكن لا تؤاخذه

– حسنا تفضل

– لما لا تمسح له؟ ألا تحب أن يكون أباك جميلا؟

– بالعكس، أنا أمسح له من حين لآخر، لقد اشتريت له منذ قليل 'ميني بان كيك' (قطعة من الحلوى الهولندية) وهذا ما جعل فمه يتسخ

– جميل، وماذا عن اللباس؟

الولد يلزم الصمت قليلا ثم يرد:

– اللباس أيضا كان جيد وهو من جعله متسخا

– أنا لا أحاسبك لكن كان باستطاعتك أن تستبدل له ذلك، صحيح!

– نعم معك حق

يمسح وجه الرجل المعاق المتسخ بقميصه:

– هل تعرف ما ثمن هذه المسحة؟

– لا

– لا أحد يعلمها إلا الله، نظفه مجددا وخذ أجرا كبيرا، لا تغفل

– معك حق، أنا آسف

– هذا أباك عليك أن تجعله نظيفا وجميلا دائما، وما دمت تساعده وتقف بجانبه لتعلم أن الله لن يضيع أجرك، لتحسن إليه قدر المستطاع وتجعله محبوب الجميع، ومن الذي لا يحب الجمال والنظافة، هو أيضا يحب الجمال والنظافة، يحب أن يعيش حتى وإن كان على هذه الحالة فينبغي أن نحسن الى ما نحب ونقف وقوف المسؤولين، اليس كذلك؟

يرد الشاب:

– نعم معك حق، أنت تبدو رجل طيب ما اسمك؟

– سليم، من روتردام

– تشرفت بمعرفتك، أدريان

– جميل وأبوك؟

– آسف، وهذا أبي إسحاق

ينظر لأبوه ويقبله مرة أخرى على جبينه:

– حافظ عليه فإنه أغلى ما تملك بعد أمك، لهذا واصل الإحسان إليه فهو طريقك السهل الى الجنة

– شكرا جزيلا، سأذهب لقد تأخرت عن الطبيب

– آسف.. ليشفيه الله

أكمل أدريان يسوق والده الى الطبيب. أما هو فبقي واقفا على الباب الكبير، وبعد عدة دقائق فتحت غرفة العمليات وخرج الدكتور ومعه الكادر الطبي، وها هي هيلينا ترى ذلك فتسرع الذهاب إليهم حتى تعرف النتيجة، والصديقة والجدة يتبعانها من الخلف، سليم كان ينظر من بعيد ويتقدم، تصل

فتنصت لما سيقوله الطبيب، ينظر في عينيها والى الآخرين فيتكلم بصراحة تامة:

– آسفون جدا.. لقد فقدنا المريض بسبب (التخدير)

فانفجرت هيلينا بالبكاء، واسم خليل يخرج من بين أنفاسها المكسورة.. فتمسكها صديقتها ثم تحتضنها بشدة، الجدة تتثبت على الجدار وتضعف، وها هو ذا سليم ينحني على ركبتيه الأرض، باكيا.. كان الطبيب لحظتها قاسي نوعا ما في إجابته، لكن كان عليه أن يقول هذا في النهاية، لأنه ولابد من معرفة النتيجة، حقيقة كان الموقف مؤثرا عند سماع الخبر

****

بعد أسبوع من الفقد

عاد سليم الى العمل والحزن في داخله، وملامح الأسى ما زالت بادية على وجهه، كان العمال في المطعم قد علموا بفقدان صديقه فساندوه على اجتياز هذه المرحلة المؤلمة، خاصة العم سعيد مالك المطعم، كان أول المبادرين في مساعدته والتعاون معه، كذلك علي الصديق القديم لخليل الذي حزن على فراقه الغير متوقع، حقيقة كان لا يعلم شيء وقتها. وحين علم بأنه مات ذهب معهم للدفن وساعد أهله بمجموعة من الحاجيات والأغراض، هو لم يكن صديقا حميما لكن موته أثر على قلبه قليلا، وهذا ما جعله يشعر بالألفة والشفقة اتجاه أهله، سليم كان قد ساندهم طوال الأسبوع وساعدهم في مختلف الأشياء، لقد كان يظهر فرد من العائلة، حزين لكنه حار، هذا ما كان يبدو في الأيام الأولى من الوفاة، بغض النظر عن الصدمة الأولى. فالإنسان بطبيعة الحال يتأثر، خاصة إن كان الطرف محبوب وعزيز على القلب. ثم إنه عندما تمت مرحلة الدفن وأيام الحزن الكبير، اتجه الى السيد أرثر

القائم على المقهى ليقول له عن وفاة صاحبه، حيث طلب منه الصفح وأعطى له سبب التوقف، فقدر أوضاعه وتفهمها وسانده، حتى مديره الذي كان اسمه ميوف سمع بوفاته فحزن على موته وقال يصفه، رجل ذو حركة يحلق ويحلق ثم ينزل على رزقي في وقار، كان هذا ما صرح له عند سماع الخبر من طرف السيد أرثر. ومنذ ذلك الحين ظل يعمل في المطعم الى غاية الواحد مساء، وبعد أن أكمل قرر الذهاب الى منزل خليل، فنزل الى المحطة ليركب في الحافلة المؤدية الى الشارع ....ر، وحينما وصل بعد دقائق عدة ركب وظل جالسا في الخلف وهو يفكر في قرارة نفسه وينظر عبر النافذة تائها وهائما، كان الجو لحظتها كعادته مشمس، النسيم هادئ يضرب الوجه من حين لآخر، حسب سير الحافلة التي كان فيها حوالي أربعة وعشرون راكبا، الرواق كان فارغ لا أحد واقف فيه، كان سليم قد جلس بجانب رجل كبير مسن كان في نحو الثانية والثمانون من العمر، أبيض اللحية والشعر، ذو عينين سوداويتين، ملامحه كثعلب بريء وكبير، رجل وديع هو،

صاحب حكمة، كان هذا الشيخ قد قاطع تفكيره بإحدى الكلمات العذبة عندما لاحظ تيهه وضياعه عن جسده وعن المكان الذي كان يجلس فيه. والتي تبينت من وجهه الذي كان براقا ومترفا (يقصد بها الحكمة):

– وما فائدة التفكير إذا غاب الحبيب، وما الحبيب إلا قريب!

– نظر في وجهه قليلا ثم رد عليه، إن التفكير ليس بإرادتنا وإنما بإرادة العقل الذي وجد حبا كبيرا اتجاه الحبيب، فعمل جاهدا حتى يحقق ما يرغب فيه القريب!

– جميل يا بني، قل ما شأنك؟

– وهو كئيب الوجه، أنا يا شيخي شاب بسيط جئت الى هنا حتى أطلب العلم، فإذا بي أجد نفسي قد تورطت في أمور لم أكن أتوقعها إطلاقا، لقد هويت في وحل البئر، ومن الذي يعينني غير الله!

– نعم على الله أن يعينك، لكن كفاك تفكيرا، إن التفكير يدمر الخاطر ويشتت العقل

– فترة وستمر.. سأحاول يا شيخي

الشيخ يتابع كلامه:

– ولا تحزن على فراق الحبيب فإنه آت في يوم تطمح اليه القلوب، ولا تتعلق بأحد فإن التعلق لغير الله لذنب عظيم!

– معك حق، أسأل الله أن يصرف عني شتات العقل والتفكير، وأن يمدنا القوة في إكمال الطريق

– إن شاء الله، أنت تظهر لي رجل صالح وطيب.. لهذا أنصحك باتباع قلبك بصدق والإخلاص لله جل في علاه، فإن القلب هو الملك في مملكة الخواطر

وهو ينظر من النافذة إذ به يجد نفسه قد لحق الى الشارع الذي يسكن فيه أهل خليل فرد عليه:

– جزاك الله خيرا.. يا شيخنا لقد وصلت، أتركك، دعواتك

– ليحمينا الله وينصرك

وهو يخرج من الحافلة:

– إن شاء الله يا شيخي، أمسية طيبة

وها هو على الرصيف ينتظر مرور السيارات والحافلات حتى يقطع الطريق، وبعد دقائق من السير وصل فطرق الباب،

دقتين، فجاءت الجدة تفتح له، كانت تبدو عادية وقد اجتازت مرحلة الحزن إلا أنها لازالت تحمل في داخلها مقدار من الشوق والحب اتجاه حفيدها:

– تفضل يا بني

– شكرا.. كيفك جدتي، أنت بخير؟

– الحمد لله على كل حال من الأحوال

ثم دخل واستقر يجلس على الأريكة ملاحظا:

– أين هيلينا؟

– هي في الأعلى، في غرفتها

– جيد.. هي بخير؟

– هذا ما ستقوله لك لو سألتها، لكن العلم عند الله

– نعم معك حق

وهي واقفة:

– انتظر سأصنع لك القهوة

– نعم براحتك

ظل جالسا وحده والتفكير ما زال يسيطر على عقله، وبعد مرور دقائق عدة نزلت هيلينا من الدرج، وإذا بها تلاحظه جالسا على الأريكة، فرحبت به:

– السلام عليكم

– وعليكم السلام، كيف حالك؟

– تجيب وقد ما زالت ملامح الأسى على وجهها، الحمد لله بخير

حينئذ وصلت الجدة وهي تحمل إبريق القهوة وكأسين من القهوة بجانبهما صحن فيه السكر، في صينية خاصة بالقهوة، وها هي تطلب من هيلينا الجلوس، فجلست على الأريكة بهدوء، بعدها وضعت الصينية على المائدة وسكبت لهما القهوة وأعطت كل واحد منهما كأسه، كانت الجدة قد أحست بأنه يحب القهوة فأردفت:

– إذا تحب القهوة

– ظهرت ابتسامة خفيفة على وجهه، نعم جدتي، مذ كنت صغير وأنا أشربها، ولكن بكمية معتبرة، لا أكثر منها، إلا في أوقات معينة

– هكذا أحسن

– معك حق

ساد بينهم صمت قصير ثم بادر في التحدث:

– بقي يوم واحد على دخولك الجامعة، هل تحتاجين شيء أساعدك فيه؟

– القهوة في يديها، لا شكرا لك، لقد غيرت وجهتي

– وهو مختار، ماذا تقصدين؟

– توضح، لقد قررت اعتزال الدراسة والاكتفاء بالكتابة

– مختارا، ولكن لماذا؟ أي شيء تحتاجينه أساعدك فيه

هيلينا تؤكد:

– لا شيء افهمني إنني أريد أن أعيش حرة تماما بطريقتي لا غير، لقد غيرت هدفي اتجاه الدراسة لأني فضلت أن أقعد في المنزل، أحسن لي، أريد أن أعيش عالمي مع الكتابة

– هل أنت متأكدة؟

– نعم متأكدة على الأقل أصبح موهوبة أكثر لأخدم الناس، دون اللجوء أو الدخول في المشاكل والعراقيل، لو تعلما أصبحت لا أريد الدخول في النقاشات والمشاكل أبدا. لربما أنسى آلامي بذلك

يكلم نفسه بصوت خافت:

– نعم الصدمة تؤثر وقد تغير من الهدف الأول وكذلك...!

– وهي تشرب القهوة، ماذا قلت!

– في الحقيقة هذا ما فكرت فيه أيضا

– تتعجب، في ماذا فكرت؟!

الجدة كانت منصتة وهو يتذوق القهوة:

– لقد قررت اعتزال الدراسة والاكتفاء بالرسم

– وهي مستغربة، لماذا!

– لأنني غيرت هدفي أيضا، على الرغم من أنني فكرت جيدا إلا أنني توصلت الى الاعتزال

– غريب! ولما جئت الى أمستردام؟

يجيبها:

– حتى أطلب العلم

– تمتنع عن الأسئلة، في الأخير هذا قرارك يعود إليك

– نعم لكل قراره وهو حر فيه، جدتي لقد اكتملت قهوتي الآن وما علي سوى أن أغادر. سأعود في وقت لاحق إن شاء الله. تحتاجون شيء؟

– وهي تنهض من المقعد، لا.. شكرا لك

أضافت هيلينا:

– شكرا لك

وهو خارج من البيت.. وهما خلفه:

– إذا جاءك اثنان قولي موافقة

– كانت واقفة وقريبة من باب المنزل، من..!

– يردف، سيدليان بماهيتهما لك، فينبغي عليك أن تقولي موافقة

– أثارها الفضول، من هما!

يلزم الصمت قليلا ثم يغادر..

– أمي وأبي

****

اللوحة العميقة

حين وصل سليم الى الفندق ودخل غرفته الصغيرة، نزع حذاءه واستحم، ثم صلى صلاة العصر، كان وقتها الجو صيفي حار وساخن، مما جعله يشعر بالتعب والإرهاق، خاصة حينما عمل في المطعم وذهب لزيارة أهل خليل.

عندما أكمل صلاته ودعا الله في داخله ولأخيه، استقر يجلس على السرير، فبدأ يفكر قليلا وكأنه حازم في قرار يريد تأكيده وإبرازه، وبعد دقائق قليلة وهو يفكر، حمل الهاتف اللاسلكي الذي كان موضوع على الطاولة الصغيرة، العالية، المربعة شكلا، والتي كانت بجانب السرير منصوبة. ثم وضع السماعة على أذنه وكتب الرقم على شاشة الهاتف فرن قليلا وإذ بأمه ترد:

– مرحبا

– أمي العزيزة.. مرحبا.. كيف حالكم؟

– ابني العزيز كيف حالك؟ نحن بخير

– بخير بخير أمي، كيف هي الأحوال هناك في روتردام؟

– هي على حالها، كما تركتها، وأنت كيف هي الأحوال؟

– الحمد لله على كل حال، أنا كما أوصيتني

الأم تسأل:

– قل لي هل أكملت التسجيل في الجامعة؟ هل بدأت؟

– نعم قمت بالتسجيل يا أمي، والدراسة بقي لها يوم واحد فقط

– رائع موفق يا بني

يجدد ثقته ويكمل حديثه:

– ولكن يا أمي لقد اتصلت بك لأقول لك بعض الأمور، وأتمنى أن تسمعينني جيدا

– نعم ماذا هناك؟

– أمي لقد غيرت هدفي وقررت اعتزال الدراسة

– ماذا.. لماذا؟

كان جدي وصارم في كلامه وقراره:

– لا تقاطعين رجاء أمي سأحكي لك حتى تفهمين كل شيء

– حسنا لتكمل

– كما قلت لك لقد قررت اعتزال الدراسة، ولتعلمي أنني عندما قدمت الى هنا جرت معي العديد من الأمور ولم أكن أعلم أن كل هذا سيحدث معي، وعلى كل حال قد يكون هذا قدري، الحصول وهو أنني الآن أعمل في أحد المطاعم الكبرى في أمستردام وهذا بفضل الله ثم بفضل أخي خليل الذي توفي منذ أسبوع وأثر على وجداني

تقاطعه من جديد:

– ماذا من الذي مات.. خليل!

– نعم أمي هذا صديق الروح الذي تعرفت عليه وأنا في إحدى مقاهي أمستردام، إنه رجل طيب القلب ولقد توفي بسبب إصابته بورم خبيث في المعدة

– يا إلهي.. رحمه الله

– كما قلت لك هو الذي ساعدني في إيجاد عمل والحمد لله أنا أعمل مع أناس محترمين ويقدرون شأن الإنسان

– الحمد لله

سليم يردف:

– ولهذا يا أمي منذ ذلك اليوم عرفني على أهله، حيث ذهبنا إليهم قصد زيارتهم، وإذ به يعزمني على العشاء، فلم أشأ أن أرفض طلبه

– جيد.. فعلت ما فعلت

– يكمل، وعندما دخلنا الى بيتهم أكلنا وتبادلنا الأدوار، كان لديه أخت اسمها هيلينا وجدة كبيرة طيبة، والديه متوفيان يا أمي، كانوا هما الثلاثة فقط في البيت

– رحمهما الله.. يا رب

– على أي حال، جرت الحادثة فأخذناه للمستشفى وفي ذلك الحين تم ما قلت لك

– مسكين ليرحمه الله

– آمين

– نعم أكمل بني

لزم الصمت قليلا ثم قال:

– سأصارحك، لقد شعرت بقلبي تأثر من فراق أخي، ومن جهة أخرى شعرت بنموه واتساعه، فكثر تفكيري، كنت شعرت وكأني ولدت من جديد، بصيغة أخرى

– تتعجب، وكيف يا ولدي!

– حقيقة لقد رأيت أخته فأعجبت بأخلاقها وجمالها، وبثقافتها، ولكن عندما مات صديقي خليل نما حبي فجأة لا أدري كيف، لربما بتلك...!

سكت فجأة ثم أكملت الأم:

– أمم هكذا إذن.. اتصلت بي لتقول لي هذا

– يبتسم والسماعة على أذنه، نعم هذا وبعض الأمور التي قلتها لك منذ قليل

وهي تمزح معه:

– حسنا سليم، وماهي رسالتك؟

– لقد قررت أن آخذها! أريد منك أن تأتي ومعك أبي لتروها على الأقل وأنظر إليكما

– حسنا إن شاء الله، سأقول له ما قلت

– أمي قولي له وفهميه جيدا، أتمنى أن تأتيا غدا

– إن شاء الله عندما يدخل البيت سأقول له

– بلغي سلامي وقولي له ابنك يقول لك أحبك

تمازحه:

– أمم هكذا إذن وأنا!

– بود، أنت ككل دون استثناء أحبك

– وأنا كذلك بني حسنا الى الغد

– حتى لا أنسى، أنا في الصباح لدي عمل لتخبري أبي بذلك، لتأتوا في المساء بالسيارة، نلتقي في الفندق، على الساعة الثانية زوالا، هذا عنواني .... ص

– حسنا كما تشاء الى اللقاء

– الى اللقاء

في حين نزع السماعة من أذنه ووضعها كما كانت وقال:

– الحمد لله

وبعد دقائق قليلة وهو مستلقي على السرير ها هو ذا يفتح الخزانة الخاصة بالملابس والأغراض فيخرج حقيبته التي جاء

بها خلال سفره، كان قد أخرج منها ورقة رسم متوسطة الحجم وفرشاة مع الألوان الملونة ووضعهم على المكتب الصغير ثم جلس على الكرسي:

– بسم الله..

و إذا به يمسك الفرشاة ويبدأ الرسم في الورقة، كان يبدو أنه تخيل ما سيرسمه من قبل، كان يرسم وكأنه صاحب خبرة وخيال واسع، لم تكن لديه كل الوسائل الكافية حتى يبدع أكثر، لكنه حاول أن يرسم بإبداع، كانت لديه مبادئ حول الأشياء التي يجب رسمها والأشياء التي ينبغي أن تبقى في الذهن بصورتها الحقيقية، كان يوقن أن هناك أشياء لا يجب رسمها، كما أنه كان يحب أن يرسم الأشياء من غير ذوات الأرواح كالأشجار والأنهار والبحار والوديان، والمجهول (يقصد به الصور الخالية من الروح) الأشياء الجامدة كان يرسمها بهيئتها الطبيعية، لم يكن يبالغ في الرسم أكثر حتى لا تغره نفسه أو تدفعه الى العلو والتكبر، كان كل ما يرسمه سوى أشياء بسيطة لها معنى، ومن ضيق خاطر يرسم، الرسم كان موهبته الوحيدة التي يثق فيها

والتي يجدها بسيطة بالنسبة له، مرت سنين وهو يرسم ويتعلم من خلال بعض التمارين الخاصة بالخطوط والألوان، دون أن يلجأ لأستاذ أو رسام ذو شأن أو منصب، كان يضع الرسم نفس وعالم قد يرجع إليه في وقت الضيق، الرسم كان صديقه في الوحدة، يشعره بالفن الراقي، ينمي فيه المشاعر والأحاسيس العميقة، كان ينشر أحاسيسه وخياله على الورقة حتى يعرف نفسه أكثر وحتى يبدع أكثر ويصبح أكثر وضوحا ولمعانا وقيمة في الحياة، كل هذا كان يفعله حتى يدرب نفسه ويقوى. المهم أنه ظل يرسم ويتعمق بذهنه الى أن أذن المؤذن صلاة المغرب فتوقف عن الرسم، فقام يتوضأ ثم صلى صلاته وعاد للرسم ليكمل ما تبقى له.. وبعد ساعة من الرسم أكمل ما رسمه في الورقة وعلقها على جدار الغرفة متأملا فيها، آه لو تعلمون ما رسم!

كانت الصورة تظهر بسيطة بشكلها لكن لو تعمق فيها أحد الرسامين أو المفكرين لوجدها أكثر عمقا وتعبيرا. لقد رسم قبر تحيطه أزهار مختلفة الألوان تحت شجرة الصفصاف،

وسماء صافية زرقاء خالية من السحب، وشمس دافئة بإشعاع ناعم ساطع، ومناظر خلابة بأشجارها وجبالها الشامخة، وأرض متسعة خضراء بأعشابها ومجاريها تصب في نهر به مياه عذبة، لو شاهدت الصورة لرأيت المنظر ربيعي مزهر، سعيد خال من الحزن والكآبة، حتى القبر رسم فوقه بعض الأعشاب الخضراء والقليل من الأزهار البيضاء، اليابسة كانت تظهر ببساطتها وليونتها، كان الشيء اليابس هناك في نظره يبرز الى نعومة التربة وحنانها، كان يدرك أن في جوف اللون الرمادي للتربة فرح وسرور وحياة، وفي اللون الأخضر هناك جنة ونعيم، وآخر ما رسمه لافتة بيضاء منحرفة الشكل محمولة بعمود خشبي أشار بها اليه، مكتوب عليها، سجين القبر والبدن

****

مـوافقة

عند الساعة الثانية زوالا التقى سليم بأمه وأبيه، بعد أن أكمل عمله في المطعم، كان والداه قد أتيا الى الفندق، الذي كان يبيت فيه وانتظراه.. وحين لقيهما ركب السيارة معهما من الخلف، وهو مسرورا لرؤيتهما، مؤكدا ذلك بابتسامة صفراء ظهرت على وجهه جعلته يخجل منهما، كان الأب أنيق اللباس، يرتدي لباسا رسميا، بسيط، رشيق القامة، أشقر الشعر، وذو عينين زرقاوين، لامع هو بعينيه، ذكي وصارم، لو شاهدته لشبهته وقلت أنه طبيب جراحة دماغ، ليس بدين كثيرا، متين البنية، ملامح وجهه تشير الى الرقي والتواضع، لا يتجاوز الستين من العمر، أما الأم كانت في نحو الواحد وخمسون، ترتدي خمارا أسود، وحجابا داكنا كالليل، قصيرة القامة نوعا ما، متخلقة ومطيعة، ملمح وجهها يعبر عن الحنان والرقة، في الحقيقة كانا ثنائي متفاهم وخلوق، على الرغم من صرامة وجدية الأب، غير أن في عمقه الحب واللين. حين استقر سليم قال لوالديه، يفتح الحوار:

– حللتم طيبا وأمسيتم خيرا

– ردت الأم، أهلا سليم كيف حالك؟

– الحمد لله بكما ازددت خيرا

الأب وهو يقود السيارة:

– مرحبا بني كيف هي أحوالك في أمستردام الراقية

– ماذا أقول لك يا أبي، مرات عمل.. ومرة على مرة دراسة رسم..!

– وهو ينظر في مرآة السيارة العلوية الأمامية، هكذا إذن

– نعم وأنت كيف حالك مع العمل؟

– بخير الحمد لله، أنا متعب قليلا لكن من أجلك قدمت

– لتحمد لك هذه الصراحة، أعلم أنك كنت تعمل ليلا أنا آسف لم أكن أتعبك لولا استقرار الحال

الأب وهو يقود بيد واحدة:

– نعم أعلم بني، لا تقلق أنت الآن كبير وناضج، ولما أخاف أو أقلق عليك؟!

– نعم ولما!

وهي تنظر خلفها في وجهه:

– لكن للآن لم تقل لنا من أي طريق نذهب!

– يبدأ بالضحك ويرد بذكاء بعيدا عن الخجل، هه،هه، هيهه.. يا إلهي نسيت، أخذني الاشتياق إليكما!

أضاف الأب مبتسما:

– هيه.. حسنا قل لنا المكان؟

– يجيبه ويقدم له العنوان في ورقة، هذا هو العنوان أبي

الأم تمازحه:

– وتكتب العنوان في ورقة أيضا، أخشيت أن تنسى العنوان؟

– الأب يبتسم في خفاء، كفاك ماريا

يخجل ويغمض عينيه وهي ترى:

– لا للضرورة فقط

– أمزح معك، تعلم أني أحبك

– بود، نعم أعلم أمي أنا أيضا أحبك

يصمت الجميع قليلا ثم يردف:

– وأنت أيضا أبي

– وهو ينحرف على الطريق بالسيارة، أعرف ومن الذي لا يحب أباه!؟

يجيبه بصراحة:

– هناك يا أبي.. للأسف الشديد

– أكيد بينهما مشكلة وإلا لما حدث ذلك

– نعم يا أبي المشكلة تدمر العلاقة

أضافت ماريا:

– ورغم هذا هناك حل، أليس كذلك؟

– وما هو؟

الأب يجيب مدعما زوجته:

– حل المشكلة بينهما وربط العلاقة من جديد، بهذا سيحيا الحب جديدا، الحب لا يموت يا سليم وإنما يدفن في القلب الى حين

– معك حق يا أبي العزيز

تؤكد جواب زوجها:

– أصبت يا كمال

لم يبقى على وصولهما إلا قليلا، وإذا بقلبه يزداد نبضا وكأنه قلق، وما هو قلق:

– نكاد نصل

– وأنت هل ستدخل معنا؟

– لا يا أمي سأبقى في السيارة

– حسنا كما تشاء

يشير بيده:

– أبي أوقفها هنا فقط

– حسنا

وها هما ينزلان من السيارة يقول:

– بالتوفيق إن شاء الله

– حسنا سنعود

– إن شاء الله

فيكملان ما تبقى سيرا على الأقدام الى أن وصلا، فبدأت الأم تدق الباب، وبعد لحظات جاءت جدة خليل تفتحه،

فوجدت غريبين لأول مرة تراهما، كانت لا ترى بنسبة مئة بالمئة، لكنها ترى بنسبة معينة، فقالت ماريا:

– السلام عليكم، جئنا حتى نقول لكما قولا طيبا

– وعليكم السلام، نعم. أدخلا.. تفضلا.. مرحبا بكما في بيتكما

وعندما دخلا أجلستهما على الأريكة:

– ماذا تشربون؟

– حقيقة قهوة خفيفة لا غير

أضاف كمال:

– وأنا كذلك.. شكرا

– حسنا لكما ما تشاؤون سأعود..

عندئذ ذهبت الجدة لتحضر لهما القهوة، كانت هيلينا في تلك اللحظات في غرفتها مع صديقتها تلك لينا، يدردشون، وقد سمعت صوت الباب يدق منذ قليل، فخرجت من غرفتها وبدأت تنزل على الدرج، وإذ بها تبصرهما من حيث لا يشعران، فازداد قلبها نبضا وخفقان، مما جعلها تعود لغرفتها

في الطابق العلوي، ووجهها متغير اللون، فلاحظت لينا التي كانت جالسة تحمل في يديها كتاب حالتها:

– ما به وجهك متغير

وهي تفكر وتنظر نحو الأرض، كانت قد تذكرت كلمات سليم عندما غادر أمس منزلهم، لحظتها أدركت جيدا ماذا كان يعني تماما:

– لقد جاء رجل وامرأة، أعتقد أنها زوجته، هما في الفناء

– ترد والفضول ينمو في داخلها، ومن هما؟ لما لم تنزلي!

– أعتقد أنني عرفتهما، لقد أتيا من أجلي

الفضول يتحرك في داخلها:

– هيا من هما!؟ هل تعرفينهما؟

– نعم هذان والدا سليم

– ذلك الذي كان في المستشفى!

– بالطبع

تسأل من جديد:

– ولما هما هنا؟

– تصارحها، لقد قال لي أمس عندما يأتياني قولي موافقة وماذا تتوقعين يا ترى؟

– أمم.. هكذا إذن.. أتوقع أنه يريدك ذلك الرجل الحاذق

– هذا ما أتوقعه

لينا تبتسم:

– وما رأيك أنت؟ هل يليق بك؟

– بخجل وذكاء، وماذا تتوقعين؟

تضحك وترفع من قيمة هيلينا الراقية:

– هيهه.. يا لك من خجولة صديقتي العزيزة، أكيد إنه معجب بك، أنت أيتها الطيبة

– تبتسم في خجل، كيف سأقابلهما بكل هذا الاحمرار؟

– تضحك وتمزج، هه، هه.. لتمسحي خجلك على ملابسي الثمينة وتنزلي إليهم كفتاة حربية

– بجدية، لينا كفاك مزاحا

– آسفة عزيزتي، فلتنزلي إليهما وكوني صارمة ومتخلقة

– أولست متخلقة يا متخلقة!

وهي تضحك من جديد:

– هه.. أحبك عزيزتي، أكيد أنت هي الأخلاق في حد ذاتها

– هيا لا داعي للمجاملة سأنزل

تحضرت هيلينا ثم نزلت وبقيت صديقتها في الغرفة، وها هي تشاهد جدتها تحمل صينية القهوة وحينما وصلت إليهما رحبت بهما:

– أهلا وسهلا بكما

ردا عليها التحية، كانت الجدة قد وضعت القهوة:

– كم ملعقة من السكر تريدان؟

– ثلاثة، أحبها حلوة

–وأنا كذلك إذا أمكن

بقيت هيلينا واقفة أمامهما في خجل وإذ بالأب يدرك بأنها الفتاة التي أعجب بها ابنه:

– اجلسي..

وها هي ماريا تقول وتنظر للجدة وهيلينا على حدة:

– بالمناسبة، نحن والدا سليم ولقد حكى لي قليلا عنكما

– جيد الآن عرفتكما نتشرف بكما، حقيقة لديكما ابن يشفي الجرح العميق

– شكرا جزيلا وهو كذلك

أضاف أباه:

– أتمنى أنكما رأيتم فيه إلا الخير

– وهي تجلس، حاشا لله ما رأينا منه شرا

أضافت أمه:

– الحمد لله، حتى إنني قبل أن أتركه يسافر قلت له لتكن رجل والحمد لله

– نعم سمع كلامك. حفظه الله

وهي تنظر الى هيلينا فتتذكر شيئا فتقول:

– آسفان جدا.. لقد سمعت من ابني وفاة أخوك خليل ليرحمه الله ويرحم والداك.. يا رب

– يساند زوجته، آسفان حقا ليرحمهم الله ويدخلهم الجنة ترتبك قليلا ثم ترد:

– ليرحمهم الله

– الجدة بوقار، لا بأس، رحمهم الله

– ماريا تنظر في وجهها، على كل حال، نحن أتينا من باب الخير..

الزوجة تقطع كلامها وتنظر لزوجها كأنها تقول له أكمل، فيكمل:

– ومن أجل الخير جئنا، لطلب ابنتكم لابننا سليم إن شاء الله

الجدة وهي تبتسم في صمت وتنظر لهيلينا التي كانت ككتلة خجل موضوعة فوق الأريكة:

– إن شاء الله، في الحقيقة ابنكما رجل طيب وأنا ما رأيت منه إلا الخير ولكن القرار يعود إليها

– أكيد يجب أن يقتنع الطرفين ويرضى كل واحد منهما

تنظر في وجه هيلينا وتسألها:

– نعم وما قرارك الآن؟

–تجدد نفسها وتعزم على الرد، أنا موافقة

كانوا يرونها وينتظرون قرارها وعندما قالت قرارها ابتسموا ثلاثتهم في نفس الوقت ثم قالت ماريا:

– ليبارك الله في أولادنا

– وها هي الجدة تليها، كل شيء مبارك بإذن الله ولا نريد سوى الخير

كمال وملامح الابتسامة قد ظهرت على وجهه:

– إن شاء الله يا رب، أتمنى أن تزدهر الأسرة، الآن علينا الذهاب نستسمحكم، سنعود ان شاء الله..

– وهي تنهض، إن شاء الله، الباب مفتوح لكما في كل وقت..

– في أمان الله، في أمان الله هيلينا

تنهض أيضا:

– في أمان الله

وفي اللحظة التي غادرا فيها البيت صعدت مبتسمة الى غرفتها وحينما دخلت احتضنت صديقتها التي كانت جالسة تقرأ إحدى الرسائل مباشرة. وها هي تبتسم:

– أمم، عزيزتي، لما كل هذا الاندفاع؟ تحدثتم!

– آه نعم، لقد اجتزت المرحلة وأنا جامدة في مكاني بصعوبة، لم أشعر يوما أنني سأجد نفسي بكل ذلك الخجل

– جميل.. ما زال ينتظرك الكثير يا صديقتي الجميلة

وهي تتركها:

– آه لا تقولي هذا

– بحنان وحب، أتمنى لك زواج مبارك أختي، لتهنئي وتسعدي يا رب

وهي خارجة، متجهة الى غرفة الأدوات:

– شكرا جزيلا أختي العزيزة، أنا أيضا أتمنى لك رجلا طيبا مثلك

****

بعد الزواج بعشر سنوات

عاش سليم سعيدا مع زوجته هيلينا خلال السنوات العشر الماضية، فيها تغيرت حياة كل واحد منهما وأصبحت فخرا وشهرة وعبرة، حيث صار رساما مشهورا، يرسم ألواح عميقة وبسيطة ذات قيمة مالية ثمينة، مما جعله واثقا بموهبته ومهارته، كان قد اكتسب خلالها كفاءة وخبرة عالية. فهو من وقت اعتزاله الدراسة تعمق في الرسم وطور من موهبته وعمل جاهدا لرفعها وإبرازها في المجتمع. والى الآن ما زال يعمل في المطعم الخاص بالعم سعيد، رغم توفر المال في جعبته إلا أنه ظل وفيا ومتواضعا خلوقا يحب عمله ويتمسك به، كان همه ليس المال و إنما العيش الهنيء وقد أصابه بفضل من الله جل جلاله، بعد صبر جميل وعمل نظيف، خال من الذنوب، كما أن زوجته أصبحت أيضا كاتبة مشهورة، بثقافة علم وقيمة عالية، إذ ظلت تعمل وتجتهد طوال الوقت في البيت، كانت تضع مجالا خاص بالكتابة، في كل يوم، حيث اكتسبت حكمة وتجربة جعلتها تتعمق في كتاباتها وتحقق النجاح في إصداراتها، بالرغم

من كل العراقيل التي وجدتها خلال مسيرة حياتها إلا أنها كونت نفسها من يوم زواجها وقرارها الذي كان يبدو صائبا لحد الساعة، إذ أنها عملت ثماني إصدارات في شتى المجالات وحققت جمهورا وثق في قدراتها، كان كل هذا بتعاونهما مع بعضهما البعض، وخلال فترة الزواج أنجبت هيلينا ولد قاما بتسميته مجيد، الذي أصبح عمره لا يزيد عن تسع سنوات، ولد صغير القامة، بدين نوعا ما، صاحب العينين الخضراوين، والبشرة البيضاء اللينة، وجهه غالبا ما يكون مبتسم وبشوش، كطفل بريء لم يذق طعم المعاناة أبدا، ذو شعر أسود و أنف صغير منكسر، رطب، وشفتين حمراوين، لينين، كان يبدو مرح، وديع ولطيف. على كل حال، انتقل سليم بعد الزواج الى منزل هيلينا وجدتها التي ما زالت على قيد الحياة، إلا أن صحتها بدأت تتدهور، لكن مع مساندتهما أصبحا يقدمان لها كل ما تحتاجه من أكل وفراش وأغراض خاصة، إذ كان مجيد ولدهما يلعب ويمزح معها من حين لآخر، ولقد ظل الحال على ذلك النحو حتى جاء يومها من العمل وهو في السيارة الخاصة به،

التي اشتراها بعد سنين مرت من الزواج، كانت سيارة بسيطة بيضاء، من صنع ألماني، ذات أربع مقاعد ومقود وأربع عجلات، وهيكل فولاذي، أوقفها بجانب المنزل ونزل يفتح الباب، وإذا به يدخل والمفاتيح في يده، صاعدا الى غرفة النوم.. وعندما وصل وجد هيلينا جالسة على المقعد، تكتب على المائدة التي كانت بها عدة أوراق ممتلئة بالحبر، وكأس قهوة موضوع بجانبها، مجيد ولده كان مستلقي هناك على السرير ويمسك كتاب ويقرأ، عبارة عن قصص قصيرة بعنوان السجين وقصص الدهر، المنظر كان كلاسيكي بلا شك. وها هو يلقي تحية الإسلام:

– السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

– نظرت في وجهه، وعليكم السلام.. كأنك متعب!

وهو واقف أمام النافذة التي كانت تستقبل الهواء، كان الجو لحظتها دافئ يتخلله نسيم بارد الى حد ما، الساعة كانت حوالي الثانية زوالا:

– نعم قليلا

– وهي تمسك الريشة.. لتنام

– أستنشق الهواء ثم أنام..

وبعد دقائق معتبرة وهو يتأمل في الطبيعة من خارج النافذة فيلاحظ ولده الصغير وزوجته التي أوقفت الكتابة للتو تبكي والدموع على خديها كإنسان تأثر من شيء فقده. أحيطكم علما أنها كانت حامل بمولودها الثاني وهو في الشهر السادس.

لهذا شعر بالقلق:

– ما بك تبكين؟

– ترد بصوت خافت وهي محتارة، لقد قتلت أحد الشخصيات عمدا، كنت أبحث عن الحلول وأنا أريد قتله!

– وهو مستغرب، غريبة حقا موهبتكم هذه، هل لهذه الدرجة كان عليك قتله؟

توضح وهي تغمس الريشة في الحبر:

– نعم لقد كنت أود بلوغ الذروة واجتيازها مع حل العقدة لكن لم أجد سوى حل واحد وهو قتل الشخصية، حتى أستقر وأكمل كتابة الرواية دون أن أعاني كثيرا وأنا أفكر في بديل

– وهل يا ترى سيعجب جمهورك بروايتك الحزينة بعد أن فعلت هذا؟!

– اسأل مجيد قد يكون أدرى بذلك

يخاطب ابنه:

– بماذا تجيب يا بني؟

– كان منصتا، ضعيني في الرواية يا أمي أكيد ستعجبهم لأنني أنا هو التشويق والمتعة، أنا هو الفائدة والسعادة، أمم.

– تبتسم وتقول، إن شاء الله يا بني العزيز

وهو يبتسم ويخاطب ابنه:

– هل أعجبتك اللوحة التي رسمتها سابقا...؟

– لا أدري، ماذا رسمت أبي!

تتوقف عن الكتابة:

– يا إلهي نسيت أن أقول له، لقد أتعبتني الرواية، آسفة يا زوجي

– وهو يبتعد عن النافذة، لا بأس، تعال يا بني سأريك ماذا رسمت..

نزلا الى الطابق الأول وأخذه الى غرفة خاله القديمة وأخرج إحدى الألواح المرسومة الخاصة به وأراها له، وها هو مجيد ينظر إليها ويتأمل جيدا فيضغط على شفته السفلى بفمه وبعينين واسعتين:

– واو هذا مدهش يا أبي، لقد أتقنت رسم السماء والزهور جيدا، ولكن يا أبي ماذا تقصد بهذا القبر أمام هذه الشجرة الخضراء؟

– يوضح له، هذا القبر للذين يموتون وهم تائبون، لقد رسمتها منذ سنين، عندما توفي خالك وهو تائب شجاع، لتعلم يا بني أنه كان دافعي وحافزي في رسمها بهذا الشكل

– رحمك الله يا خالي. حتى أعيش في هذا النعيم أكون طيب أبي!

– أجل يا بني ستنعم بعالم أكثر جمالا من هذا الذي تراه في الصورة، إنها الجنة التي لا يمكن تصورها، سأنصحك بأربع يا بني وأتمنى أن تأخذ بنصائحي

– إن شاء الله أبي

يكلمه ناظرا فيه:

– لا تتبع الرفيق الغافل عن عبادة الله لأنه سيقحمك في المتاهات، وساعد الناس ولو بكلمة طيبة، وقف بجانبهم فهم أساس السعادة، واعمل في صمت ولا تخبر أحد

– حسنا أبي إن شاء الله، أدعو لي

– حفظك الله ورعاك يا بني العزيز

وعندما انتهى الولد من اللوحة رجعا يصعدان الدرج، كان سليم مرهق ومتعب حقا مما جعله يعود الى الغرفة لينام. فتخرج الجدة من غرفتها تحمل بعض الأغراض فيراها عن بعد مسافة:

– مرحبا جدتي كيف هي أحوالك؟

– وهي تخرج وتغلق باب غرفتها، بخير بني نحمد الله

وهو يمسك ابنه من يده:

– اذهب ساعد جدتك في حمل الأغراض

يواصل صعود الدرج الى أن وصل للغرفة فدخل فوجد زوجته ما تزال تكتب:

– سأنام.. لترتاحي قليلا

– أنا على وشك إكمالها ويجب علي اغتنام الفرصة

– حسنا أتمنى ألا تقتلي شخصية بارزة أخرى من الرواية

تضحك وتنظر فيه:

– هه.. هه. يا إلهي هذا ما أخافه

– مستلق على السرير، لا تخافي أيتها الحربية، فهي مجرد شخصية فقط. أقيميني قبل العصر..

وبعد أن نام حوالي ساعة قام فزعا وحائرا! كان قد وجدها تكتب على نفس الحال، فاستقر، وهي عندئذ أحست به وبالقيامة التي في داخله:

– خير ما بك!

– لا شيء رأيت حلما، لقد كان أخاك

– خليل!

وهو جالس على السرير المتسع:

– نعم رأيته يقول: سليم لقد أخذت بوصيتي كاملة، سأدعو لك ربي أن يدخلك الجنة ثم اختفى فجأة!

– تتوقف عن الكتابة. رحمه الله، ولكن أي وصية قالها لك؟!

– يصارحها، قبل أن يموت أوصاني بك وبجدتك، قال لي كن معهما، الزمهما..

صمتت قليلا ثم ردت:

– هكذا إذن، تزوجتني بسبب وصية!

– بجدية وهدوء، حقا كلها مؤثرات في هذه الحياة، الصدمة من جهة والوصية من جهة والحب من جهة، وأنا يا أيتها الروح أحببتك بدافع الحب، وهو الله الواحد الأحد الذي ألقى في قلبي هذا الحب

وهي تنهض واقفة من مقعدها:

– آسفة زوجي لا تؤاخذني من انفعالي هذا، أرجوك

– ينهض من السرير صامتا

– وهي تعبر عن اعتذارها، أحبك كثيرا..

فجأة يدخل ابنهما مجيد فيمسكه من يده:

– هيا بنا يا صديقي لدينا عمل سننجزه

– الى أين!

– حيث أخاك

– هل أنت ذاهب إليه؟

– أجل لدي وقت لم أزره

– ليكن الله في عونكما

مجيد وهو يمازح أمه حين لاحظ أن الأوراق ما زالت موضوعة على المائدة:

– أمي هل وضعتني في الرواية؟

– هه، هه، سأضعك بالطبع. ألم تقل لي أنك أنت هو الفائدة والسعادة

الصغير وكأنه يذكرها:

– التشويق والمتعة أيضا، أليس كذلك أبي؟

– يبتسم ويداعب شعره، نعم بني ولابد أن يتوفر مجيد في الرواية

– حسنا سأقوم بما طلبتماه مني

*****

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك